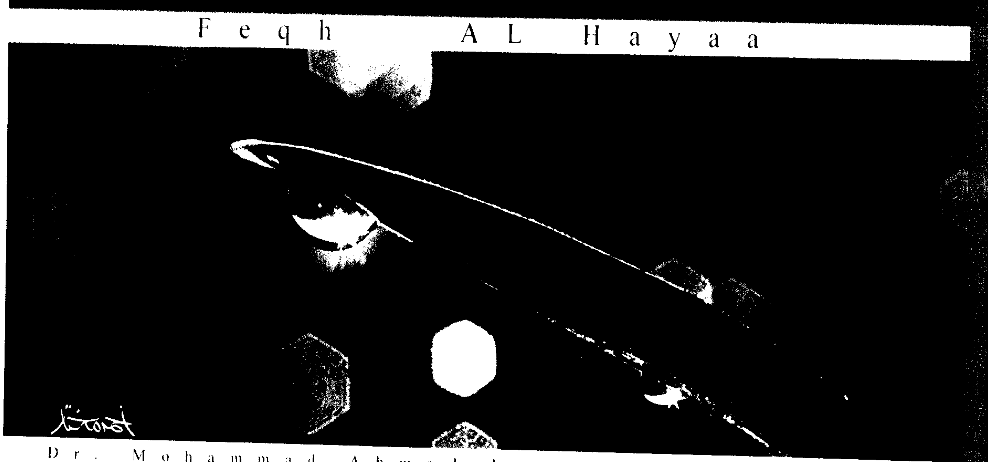


Feqh AL Hayaa



Dr. Mohammad Ahmad Isma'il Al Mokaddem

تأليف

د. محمد اسماعيل المقدم

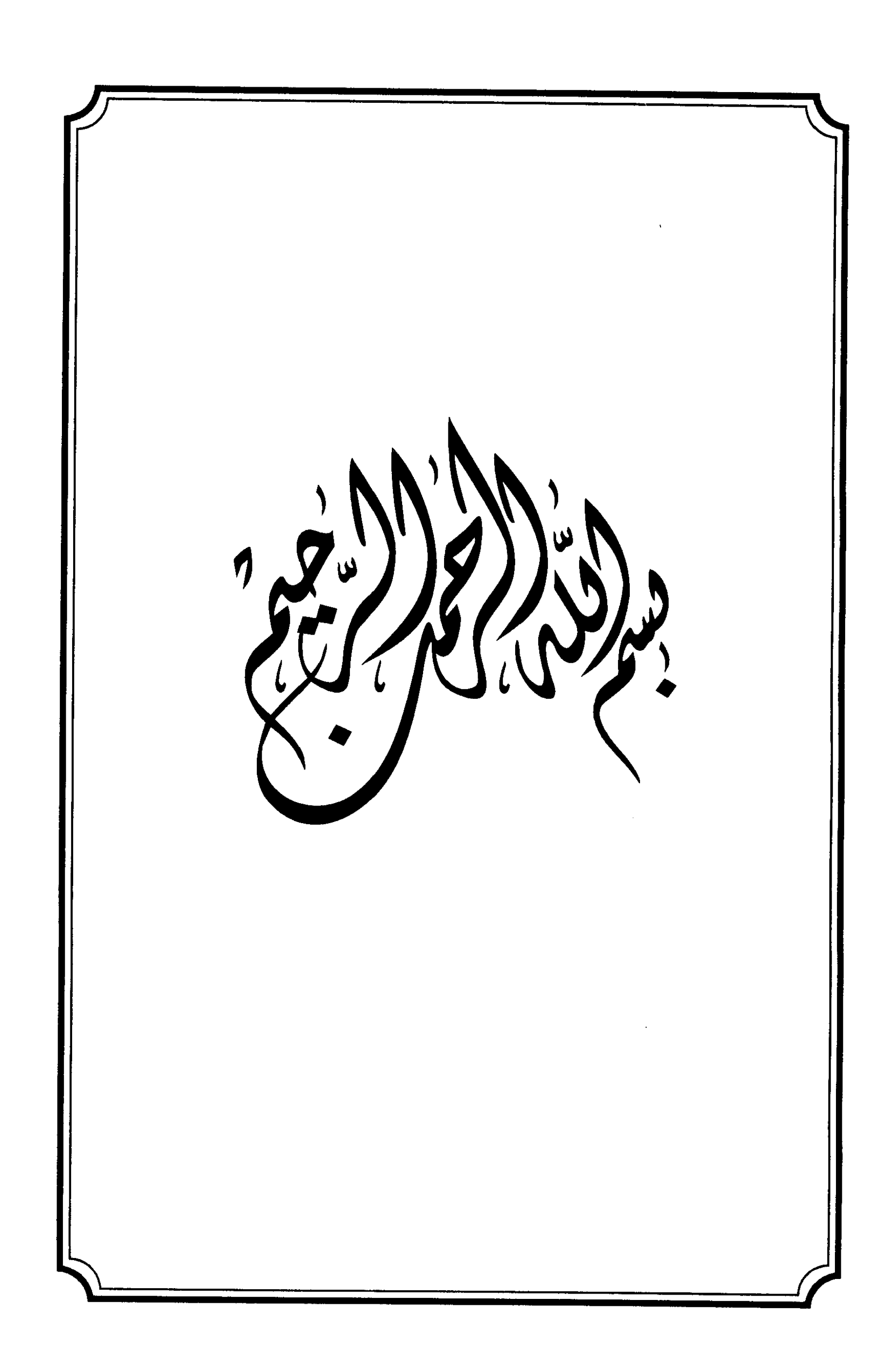
عفا الله عنه

١٩ مايو ٢٠٠٦م
(٢١ ربيع الآخر ١٤٢٧هـ)

عدد النسخ ٢٠٠٠ نسخة

فقه الحياء

رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٧٩٠٢


بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله حمدًا يبلغ رضاه، وصَلَّى الله على أشرف من اجتباه، عبدِه ورسولِه القائل: «**إنما بُعِثْتُ لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق**»[(١)]، وعلى مَنْ صاحَبَهُ ووالاه، وسَلَّم تسليمًا كثيرًا كثيرًا، لا يُدْرَكُ منتهاه.

أما بعد:

فإن الحياء من أبرز الصفات التي تنأى بالمرء عن الرذائل، وتحجزه عن السقوط إلى سفاسف الأخلاق، وحمأة الذنوب، كما أن الحياء من أقوى البواعث على الفضائل وارتياد معالي الأمور.

والحياء صِمام أمنٍ لسائر الأخلاق، وهو فضيلةٌ سامية تضبط إيقاع السلوك البشري، وسياجٌ واقٍ يحمي القيم، ويحرس الأخلاق.

ولقد رفع الإسلام شأن الحياء، وحث على لزومه باعتباره خُلُقَ الإسلام، ورأسَ مكارم الأخلاق.

وفي هذا المبحث نحاول أن نسلط الضوء على «**فقه الحياء**» من خلال بيان معناه، وفضائله، وأنواعه، وأحكامه، وثمراته، والله - سبحانه وتعالى - المسئول المرجوُّ الإجابة أن ينفع به كاتبه وقارئه، وأن يلهم

---

(١) رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٢٧٣)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ١٩٢)، والحاكم (٢/ ٦١٣)، وأحمد (٢/ ٣١٨)، وقال الحاكم: (صحيح على شرط مسلم)، ووافقه الذهبي، وصححه الحافظ ابن عبد البر.

المسلمين عَوْدًا حميدًا إلى مكارم أخلاق الإسلام الحنيف، وإحياءً وتجديدًا لمحاسن الشرع الشريف، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والحمد لله رب العالمين

محمد بن أحمد بن إسماعيل بن المقدم
الإسكندرية في الخميس ١٠محرم ١٤٢٧هـ
الموافق ٩ فبراير ٢٠٠٦ م



فصل

في معنى الحياء

الحياء لغة:

مصدر حيي، من الحياة، والغيث يُسمى حَيًا - بالقصر- لأن به حياةَ الأرض والنبات والدواب، وكذلك سميت بالحياء حياةُ الدنيا والآخرة، فمن لا حياء له فهو ميتٌ في الدنيا، شقيٌ في الآخرة، قال بعض البلغاء: «حياة الوجه بحيائه، كما أن حياة الغرس بمائه».

وعلى حَسَب حياة القلب يكون فيه قوة خُلُق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيى كان الحياءُ أتم.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية – رحمه الله تعالى – :

«وكُلَّما كانت هذه الأخلاقُ في صاحبها أكملَ، كانتْ حياتُهُ أقوى وأتمَّ؛ ولهذا كان خُلُقُ «الحياء» مشتقًا من «الحياة» اسمًا وحقيقةً، فأكملُ النَّاس حياةً أكملُهُمْ حياءً، ونقصان حياء المرء من نقصان حياتِهِ فإنَّ الرُّوح إذا ماتتْ لم تُحِسَّ بما يؤلمها من القبائح، فلا تستحي منها، فإذا كانتْ صحيحة الحياة أحست بذلك، فاستحيت منه، وكذلك سائر الأخلاق الفاضلة، والصفات الممدوحة تابعة لقوة الحياة، وضدُّها من نقصان الحياة، ولهذا كانت حياة الشجاع أكملَ من حياة الجبان، وحياة السَّخيِّ أكملَ من حياةِ البخيلِ، وحياة الفَطِنِ الذَّكيِّ أكملَ من حياة الفَدْمِ[1] البليدِ؛ ولهذا لمَّا كانَ الأنبياءُ - صلوات الله عليهم- أكملَ

(١) الفَدْم: الثقيل الفهم، العَيي.

النَّاس حياةً- حتَّى إنَّ قوَّة حياتهم تمنعُ الأرضَ أنْ تُبلِيَ أجسامَهُمْ- كانوا أكملَ النَّاس في هذه الأخلاق، ثُمَّ الأَمْثَلُ فالأمثل من أتباعِهِمْ»[١].

الحياء شرعًا:

تغير وانكسار يعتري الإنسانَ من خوف ما يُعابُ به ويُذَم[٢].

وقيل: هو خلق يبعث على اجتناب القبيح من الأفعال والأقوال، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق.

وقيل: هو الترقي عن المساوئ خوفَ الذم.

وقيل: هو انقباض النفس من شيء حذرًا من الملام[٣].

وقال ابن مسكويه: الحياء هو انحصار النفس خوف إتيان القبائح، والحذرُ من الذمِّ والسَّبِّ الصادقُ[٤].

وقيل: هو مَلَكَةٌ راسخة للنفس، تُوزِعُها[٥] على إيفاء الحقوق، وترك القطيعة والعقوق[٦].

وقال الجُرجاني: هو انقباض النفس من شيء، وتركه حذرًا عن اللوم فيه[٧].

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/٩٤٨).
(٢) «الفتح» (١/٥٢).
(٣) «التوقيف على مهمات التعاريف» ص (١٥٠).
(٤) تُغريها، وتدفعها.
(٥) «تهذيب الأخلاق» ص (١٧).
(٦) «دليل الفالحين» (٣/١٥٨).
(٧) «التعريفات» ص (٩٤).

وقال الجاحظ: الحياء من قبيل الوقار، وهو غضُّ الطرف والانقباض عن الكلام حِشمةً للمستحيا منه، وهو عادة محمودة ما لم تكن عن عِيٍّ ولا عجزٍ[١].

وقال ذو النون المصري: الحياء وجودُ الهيبة في القلب مع وحشةِ ما سبق منك إلى ربِّك، والحبُّ يُنْطِقُ، والحياء يُسْكِتُ، والخوف يُقْلِق»[٢].

وقيل: الحياء: ذوبان الحشا لاطلاع المولى.

إذن حقيقة الحياء:

أنه خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق، وقد اختصَّ الله عز وجل به الإنسان ليرتدع به عما تنزع إليه الشهوة من القبائح، كي لا يكون كالبهيمة التي تهجم على ما تشتهي دون حياء.

وبين اقتراف الذنوب وبين قلة الحياء وعدم الغيرة تلازم من الطرفين، وكل منهما يستدعي الآخر، ويطلبه حثيثًا، قال الشاعر:

إذا رُزِقَ الفتى وجهًا وَقاحًا[٣] ... تقلَّب في الأمور كما يشاء
ولم يكُ للدواء ولا لشيء ... تعالجه به فيه غَناء
ورُبَّ قبيحةٍ ما حال بيني ... وبين ركوبها إلا الحياء
فكان هو الدواء لها ولكن ... إذا ذهب الحياءُ فلا دواء

---

(١) «تهذيب الأخلاق» للجاحظ ص (٢٣).

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٠).

(٣) وَقاحًا: متلونًا كثير الوقاحة وعديم الحياء، والوقاحة والقِحَة: أن يقل حياء الرجل، ويجترئ على اقتراف القبائح، ولا يعبأ بها.

عن مَعْبَدٍ الجُهَنِيِّ قال في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦] قال: «لباس التقوى الحياء»(١).

فمن ثَمَّ قال سفيان بن عيينة رحمه الله: الحياء أخف التقوى، ولا يخاف العبد حتى يستحيي، وهل دخل أهل التقوى في التقوى إلا من الحياء؟!».

قال الواسطي: «لم يذُق لذَعاتِ الحياءِ مَن لابسَ خرقَ حَدٍّ، أو نَقْضَ عهدٍ».

ما إن دعاني الهوى لفاحشة إلا نهاني الحياءُ والكرمُ
ولا إلى محرم مددتُ يدي ولا مشت بي لريبةٍ قدمُ

وقال أبو عقبة الجراح بن عبد الله الحَكَمي: «تركت الذنوب حياءً أربعين سنة، ثم أدركني الورع»(٢).

وقال بعض العقلاء:

«عليك بالحياء والأَنَفَة، فإنك إن استحييت من الفَضَاحة؛ اجتنبتَ الخساسة، وإن أنفت من الغلبة؛ لم يتقدمك أحد في مرتبة».

الفرق بين الحياء والخجل:

قال الراغب:

«وأما الخجل فحيرة النفس لفرط الحياء، ويُحمد في النساء والصبيان(٣)، ويُذَمُّ باتفاق من الرجال، والوقاحة مذمومة بكل إنسان إذ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٨/ ١٧٥).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٨٩-١٩٠).
(٣) ليس هذا على إطلاقه، كما سنوضحه -إن شاء- الله في مبحث مستقل.

هي انسلاخ من الإنسانية، وحقيقتها لَجاج النفس في تعاطي القبيح، واشتقاقه من: حافرٍ وَقاح: أي صُلب، وبهذه المناسبة قال الشاعر:

يا ليت لي مِن جِلد وجهك رقعةً   فأقد منها حافرًا للأشهب[(١)]

وما أصدق قول الشاعر:

صلابة الوجه لم تغلب على أحد   إلا تكامل فيه الشر واجتمعا[(٢)]

وكان مالك بن دينار رحمه الله يقول: «ما عاقب اللهُ تعالى قلبًا بأشدَّ من أن يسلب منه الحياء».

وعن سليمان قال: إذا أراد الله بعبدٍ هلاكًا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا مَقيتًا مُمَقَّتًا»[(٣)].

وقال صالح بن جَنَاح:

إذا قلّ ماءُ الوجه قلّ حياؤه   ولا خير في وجهٍ إذا قل ماؤُه[(٤)]

* * *

الحياء دليل نجابة الصبي:

قال أبو حامد الغزالي - رحمه الله تعالى -:

«أول حُسْن المراقبة ظهور الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحيي ويترك بعض الأفعال؛ فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه حتى يرى

---

(١) الأشهب: صفة من صفات الخيل.

(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» ص (١٤٦).

(٣) «مكارم الأخلاق» ص (٨٩).

(٤) انظر: «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ٢٢٧).

بعض الأشياء قبيحًا ومخالفًا للبعض، فصار يستحيي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه، وبِشارة تدل على اعتدال الأخلاق، وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحيي لا ينبغي أن يُهمل، بل يُستعان على تأديبه بحيائه أو تمييزه»(١) اهـ.

وقال ابن مسكويه - رحمه الله تعالى-: «إذا نظرت إلى الصبي فوجدته مستحييًا مُطْرِقًا بطرفه إلى الأرض غيرَ وقَاح الوجه، ولا محدقًا إليك؛ فهو أول دليل نجابته، والشاهد لك على أن نفسه قد أحسَّت بالجميل والقبيح»(٢).

وعن عمرو بن عقبة قال: لما بلغتُ خمسَ عشرةَ سنة قال لي أبي: «يا بني قد تقطَّعَتْ عنك شرائعُ الصبا، فالزم الحياء تكن من أهله، ولا تتركه فتبين منه».

الحياء جِبِلِّي، وكَسْبِيٌّ:

(أ) الحياء غريزي جبلي وهبـيٌّ مركوز في فطرة الإنسان، فهو غيرُ مكتسب أصلاً، لكنه اكتسابي كمالاً.

مثال الحياء الجبلي الفطري: حياء الإنسان من التكشف، ومنه حياء آدم وحواء عليهما السلام حين سارعا إلى ستر عوراتهما بأوراق الشجر بمجرد أن تبدت لهما سوءاتهما: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

وعن الحسن عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن**

(١) «الإحياء» (٣/ ٧٢).

(٢) «تهذيب الأخلاق» ص (٤٨).

آدم عليه السلام كان رجلًا طُوَالًا كأنه نخلةٌ سَحُوقٌ[١] **كثير شعرِ الرأس، فلما وقع بما وقع به بَدَتْ له عورتُه، وكان لا يراها قبلِ ذلك، فانطلق هاربًا فأخذَتْ برأسِهِ شجرةٌ من شجر الجنة، فقال لها: «أَرْسِلِيني» قالت: «لستُ مُرْسِلَتَكَ»، قال: فناداه ربه عز وجل: «أَمِنِّي تَفِرُّ؟»، قال: «أي ربِّ ألا أستحييك؟» قال: فناداه: «وإن المؤمن يستحيي رَبَّه عز وجل من الذنب إذا وقع به، ثم يعلمُ بحمد الله أين المخرج، يعلم أن المخرج في الاستغفار والتوبة إلى الله عز وجل»**[٢].

وفي الحياء الفطري الغريزي قال رسول الله ﷺ لأشج بني عصر: «**إن فيك لخَلتين**[٣] **يحبهما الله عز وجل**» فقال: «وما هما؟»، قال: «**الحِلْم والحياء**»، قال: قلت: «قديمًا كانتا فِيَّ أم حديثًا؟» قال: «**قديمًا**»، قال: «الحمد لله الذي جبلني على خَلتين يحبهما الله عز وجل»[٤].

(ب) أما النوع الآخر من الحياء فإنه يكون مكتسبًا من معرفة الله عز وجل، وقربه من عباده، وإحاطته بهم، وعلمه خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، فهذا هو الحياء «الإيمانيُّ» المكلَّف به، والذي يمنع المؤمن من ارتكاب المعاصي خوفًا من الله -عز وجل- وقد ينطبع الشخصُ

---

(١) النخلة السحوق: الطويلة التي بَعُدَ ثمرها على المجتني.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» ص (٤٨) مرسلًا، فإن الحسن لم يدرك أبيًا، وأخرجه الحاكم موصولاً (٢/ ٢٦٢) عن الحسن عن يحيى بن ضمرة، (ولعله: عُتَيُّ ابن ضمرة)، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه».

(٣) الخَلَّة: الخَصْلة.

(٤) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (١٩٠)، والإمام أحمد (٤/ ٢٠٥)، وله شواهد في «الصحيحين» وغيرهما، وصححه الألباني على شرط الشيخين.

بالمكتسب حتى يصير كالغريزي.

وقَدْ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ جُمِعَ لَهُ النَّوعَانِ، فَكَانَ ﷺ فِي الغَرِيزِيِّ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَكَانَ فِي الْمُكْتَسَبِ فِي الذِّرْوَةِ العُلْيَا[١].

وَقَالَ المُناوِيُّ: «الحَيَاءُ نَوْعَانِ: نَفْسَانِيٌّ، وَهُوَ المَخْلُوقُ فِي النُّفُوسِ كُلِّهَا، كَالْحَيَاءِ مِنْ كَشْفِ العَوْرَةِ والجِمَاعِ بَيْنَ النَّاسِ، وَإِيمَانِيٌّ وَهُوَ أَنْ يَمْتَنِعَ المُسْلِمُ مِنْ فِعْلِ المُحَرَّمِ خَوْفًا مِنَ اللَّهِ»[٢] اهـ.

الحياء من مكارم الأخلاق عند العرب:

قال في «اللمعات»: «كانت العربُ أحسنَ الأمم أخلاقًا، ولكنهم قد ضلوا بالكفر عن كثير منها، وخلطوا بها أحكام الجاهلية، فبُعِثَ ﷺ ليتمم محاسن الأخلاق»[٣] اهـ.

وكان الحياء من هذه الأخلاق التي تغنى بها العرب:

قال الشَّنْفَرى يصف امرأة شديدة الحياء:

كأنَّ لها في الأرض نَسْيًا تَقُصُّه على أَمِّها وإن تُحَدِّثْكَ تَبْلِتِ

يقول: لا ترفع رأسها كأنها تطلب شيئًا في الأرض، والنَّسْيُ: ما أضله أهلُه فيُطلَب ويطمع فيه، وتقصه: تتبعه، قال عز وجل:

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي اتبعي أثره، والأَمُّ: القصد، وقوله: «وإن تحدثْكَ تَبْلِتِ» أي: تقطع الحديث لاستحيائها.

---

(١) «فتح الباري» (١٠/ ٥٢٢- ٥٢٣).

(٢) «التوقيف على مهمات التعاريف» ص (١٥٠).

(٣) «فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد» (١/ ٣٧٠).

ووصف النابغة شدة حياء امرأة النعمان حين مرت بمجلسهما، فسقط نصيفها (أي برقعها) الذي كانت قد تقنعت به، فسترت وجهها بذراعيها، وانحنت على الأرض ترفع النصيف بيدها الأخرى، فقال:

سقط النصيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَه فـتـنـاولـتْـه واتَّـقَـتْـنـا بـالـيـدِ

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن أبا سفيان أخبره (أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه وحولَه عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بتَرْجُمانه، فقال: «أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟»، فقال أبو سفيان: «فقلت: أنا أقربهم نسبًا»، فقال: «أدنوه مني، وقرِّبوا أصحابه، فاجعلوهم عند ظهره»، ثم قال لتَرْجُمانه: «قل لهم: إني سائلٌ هذا الرجلَ، فإن كَذَبني، فكذِّبوه»، فوالله لولا الحياءُ من أن يأثِروا عَلَيَّ كذبًا لكذبتُ عنه» الحديث[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وفي قوله: «يأثروا» دون قوله: «يُكَذِّبوا» دليل على أنه كان واثقًا منهم بعدم التكذيب أن لو كذب لاشتراكهم معه في عداوة النبي ﷺ، لكنه ترك ذلك استحياءً وأنفة من أن يتحدثوا بذلك بعد أن يرجعوا، فيصير عند سامعي ذلك كذابًا، وفي رواية ابن إسحاق التصريح بذلك، ولفظه: «فوالله لو قد كذبت ما ردوا عليَّ، ولكني كنت امرءًا سيدًا أتكرم عن الكذب، وعلمت أن أيسر ما في ذلك إن أنا كذبته أن يحفظوا ذلك عني ثم يتحدثوا به، فلم أكذبه» اهـ[2].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعثه مع

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٥- فتح).

(٢) فتح الباري (١/ ٣٥).

أبى عامر على جيش في أوطاس، ورمى رجل من بني جُشَم أبا عامر بسهم فأثبته في ركبته، قال أبو موسى: فقصدت له، فاعتمدته، فلحِقته، فلما رآني ولَّى عني ذاهبًا، فاتَّبعته، وجعلت أقول له: «ألا تستحيي؟! ألست عربيًّا؟! ألا تثبت؟! فكفَّ، فالتقيت أنا وهو، فاختلفنا أنا وهو ضربتين، فضربته بالسيف، فقتلته»[1].

(١) رواه البخاري (٤٣٢٣)، ومسلم (٢٤٩٨) (١٦/ ٥٩- نووي).

الحياء في الإسلام

أما في الإسلام فقد رفع الإسلام شأن الحياء، وحض عليه، وامتدح أهله في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، فلقد أبرز القرآن العظيم خلق الحياء في ابنتي الرجل الصالح، اللتين انحدرتا من بيت كريم، ينضح بالعفاف والطهارة، والصيانة وحسن التربية، قال الله تعالى في شأن موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: ٢٣ - ٢٥].

دلَّت الآيات على الأدب الرفيع الذي تحلَّى به موسى عليه السّلام، وعلى مدى حيائه، ويتَّضح هذا من سياق الحديث الذي دار بينه وبين بنتي شعيب، ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ ولم يزد على ذلك، فلم يسألهما عن اسميهما ولا عن أبيهما وعمَّا إذا كانت الأغنام ملكًا لأبيهما أو لهم فيها شركاء، وعمَّا إذا كانتا أو إحداهنَّ متزوجة كما يفعله بعض الناس اليوم، ويعتبرونه من مزايا التحضُّر والتكيُّف والاندماج الاجتماعي، وكذلك الحال في موقف بنتي شعيب إذ كان جوابهما على مستوى السؤال، مستوفيًا البيان في عبارة موجزة مانعة من استمرار الحديث: ﴿لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾، فبذلك أسدلتا الستار عن استمرار

الحديث، ولم تسأله كلتاهما أو إحداهما عن اسمه وعن بلده، وعن أيام حياته الماضية، وعمَّا إذا كان متزوجًا أو غير متزوج، وكذلك حين جاءته إحداهما قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، وكانت في مشيتها تسير في حياء بالغ، حياء البنت الكريمة الحاصلة على الجانب الوفير من التربية الحسنة، والخصال الكريمة الطيبة، فوصف القرآن الكريم مِشيتها: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، كأنما الحياء بساط، وهي عليه تسير(١)، قال عمر رضي الله عنه: «ليست بسَلْفَع(٢) من النساء خَرَّاجةً ولَّاجة، ولكن جاءت مستترة، قد وضعت كُمَّ دِرْعِها على وجهها استحياءً»(٣)، وفي رواية: «جاءت تمشي على استحياء، قائلة بثوبها على وجهها، ليست بسلفع من النساء خراجة ولَّاجة»(٤).

وبلغ من تقدير الإسلام خُلُقَ الحياء أن بُني على اعتباره حكمٌ شرعي، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «سألت رسول الله ﷺ عن الجارية يُنكِحُها أهلُها، أَتُستأمر أم لا؟» فقال لها رسول الله ﷺ: «**نعم تُستأمر**»، فقالت: فقلت له: «إنها تستحيي»، فقال رسول الله ﷺ: «**فذلك إذنها إذا هي سكتت**»(٥)، وفي لفظ النسائي وأحمد: «استأمروا النساء في أبضاعهن» قيل: «فإن البكر تستحيي أن

---

(١) «الأمومة في القرآن الكريم والسنة النبوية» للدكتور محمد السيد الزعبلاوي ص (٩٢-٩٣).

(٢) امرأة سلفع: سليطة جريئة قليلة الحياء.

(٣) أخرجه الفريابي، وابن أبي شيبة في «المصنف»، وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه عن عمر رضي الله عنه - كما في «الدر المنثور» (٥/ ١٢٤).

(٤) ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم، وصححه كما في «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٢٣٨).

(٥) رواه البخاري رقم (٥١٣٧)، ومسلم (١٤٢٠)، وغيرهما.

تكلم؟» قال: «سكوتها إذنها»، وقال ﷺ: «**لا تنكح البكر حتى تُستأذن، ولا الثيبُ حتى تُستأمر**»[١] الحديث.

فجعل إذن البكر أن تسكت لشدة حيائها، وأما الثيب فلا بد من إذنها الصريح في التزويج.

بل جعل النبي ﷺ الاستحياء معيارًا يُفْصَلُ به بين البِر والإثم، فقد قال ﷺ للنواس بن سمعان رضي الله عنه: «البرُّ: حسن الخلق، والإثم: ما حاك في صدرك، وكرهتَ أن يطلع عليه الناس»[٢]، وقال ﷺ لوابصة ابن معبد رضي الله عنه: «**البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»[٣].



(١) رواه البخاري رقم (٥١٣٦)، ومسلم (١٤١٩)، وغيرهما.

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٣)، والترمذي (٢٣٩٠)، والإمام أحمد (٤/ ١٨٢).

(٣) رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٢٨).

فصل

في أقسام الحياء

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله تعالى:

قُسِّمَ الحَيَاءُ على عَشْرَةِ أَوْجُهٍ:

حَيَاءُ جِنَايَةٍ، وحَيَاءُ تَقْصِيرٍ، وَحَيَاءُ إِجْلَالٍ، وحَيَاءُ كَرَم، وحَيَاءُ حِشْمَةٍ، وَحَيَاءُ اسْتِحْقَارِ النَّفْسِ (اسْتِصْغَارِهَا)، وحَيَاءُ مَحَبَّةٍ، وَحَيَاءُ عُبُودِيَّةٍ، وَحَيَاءُ شَرَفٍ وَعِزَّةٍ، وَحَيَاءُ الْمُسْتَحْيِي مِنْ نَفْسِهِ.

١- فَأَمَّا **حَيَاءُ الجِنَايَةِ**: فَمِنْهُ حَيَاءُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا فَرَّ هَارِبًا فِي الْجَنَّةِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: «**أَفِرَارًا مِنِّي يَا آدَمُ؟**» قَالَ: لَا يَا رَبِّ! بَلْ حَيَاءً مِنْكَ.

٢- **وَحَيَاءُ التَّقْصِيرِ**: كَحَيَاءِ المَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ والنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ، فإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ قَالُوا: سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ.

٣- **وَحَيَاءُ الإِجْلَالِ**: وَهُوَ حَيَاءُ المَعْرِفَةِ، وَعَلَى حَسَبِ مَعْرِفَةِ العَبْدِ بِرَبِّهِ يَكُونُ حَيَاؤُهُ مِنْهُ.

٤- **وَحَيَاءُ الكَرَم**: كَحَيَاءِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ القَوْمِ الَّذِينَ دَعَاهُمْ إِلَى وَلِيمَةِ زَيْنَبَ، وَطَوَّلُوا الجُلُوسَ عِنْدَهُ، فَقَامَ واسْتَحْيَى أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: انْصَرِفُوا.

٥- **وَحَيَاءُ الحِشْمَةِ**: كَحَيَاءِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنْ يَسْأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِ الْمَذْيِ لِمَكَانِ ابْنَتِهِ مِنْهُ.

٦- **وحَيَاءُ الاسْتِحْقَارِ**، واسْتِصْغَارِ النَّفْسِ كَحَيَاءِ العَبْدِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِينَ يَسْأَلُهُ حَوَائِجَهُ، احْتِقَارًا لِشَأْنِ نَفْسِهِ، واسْتِصْغَارًا لَهَا. وَقَدْ يَكُونُ لِهَذَا النوعِ سببان: أَحَدُهُمَا: اسْتِحْقَارُ السَّائِلِ نَفْسَهُ، وَاسْتِعْظَامُ ذُنُوبِهِ وَخَطَايَاهُ.

الثَّاني: اسْتِعْظَامُ مَسْئُولِهِ (وَهُوَ المَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ).

٧- **وَأَمَّا حَيَاءُ المَحَبَّةِ**: فَهُوَ حَيَاءُ المُحِبِّ مِنْ مَحْبُوبِهِ، حَتَّى إِنَّهُ إِذَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِهِ فِي غَيْبَتِهِ هَاجَ الحَيَاءُ مِنْ قَلْبِهِ، وأَحَسَّ بِهِ فِي وَجْهِهِ وَلَا يَدْرِي مَا سَبَبُهُ.

وَكَذَلِكَ يَعْرِضُ لِلْمُحِبِّ عِنْدَ مُلَاقَاتِهِ مَحْبُوبَهُ وَمُفَاجَأَتِهِ لَهُ رَوْعَةٌ شَدِيدَةٌ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: «جَمَالٌ رَائِعٌ» وَسَبَبُ هَذَا الحَيَاءِ والرَّوْعَةِ مِمَّا لَا يَعْرِفُهُ أَكْثَرُ النَّاسِ.

فَإِذَا فَاجَأَ المَحْبُوبُ مُحِبَّهُ، وَرَآهُ بَغْتَةً، أَحَسَّ القَلْبُ بِهُجُومِ سُلْطَانِهِ عَلَيْهِ، فَاعْتَرَاهُ رَوْعَةٌ وَخَوْفٌ.

٨- **وَأَمَّا حَيَاءُ العُبُودِيَّةِ**: فَهُوَ حَيَاءٌ مُمْتَزِجٌ مِنْ مَحَبَّةٍ وَخَوْفٍ، وَمُشَاهَدَةِ عَدَمِ صَلَاحِ عُبُودِيَّتِهِ لِمَعْبُودِهِ، وَأَنَّ قَدْرَهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ مِنْهَا، فَعُبُودِيَّتُهُ لَهُ تُوجِبُ اسْتِحْيَاءَهُ مِنْهُ لَا مَحَالَةَ.

٩- **وَأَمَّا حَيَاءُ الشَّرَفِ وَالعِزَّةِ**: فَحَيَاءُ النَّفْسِ العَظِيمَةِ الكَبِيرَةِ إِذَا صَدَرَ مِنْهَا مَا هُوَ دُونَ قَدْرِهَا مِنْ بَذْلٍ أَوْ عَطَاءٍ أَوْ إِحْسَانٍ، فَإِنَّهُ يَسْتَحْيِي مَعَ بَذْلِهِ حَيَاءَ شَرفِ نَفْسٍ وَعِزَّةٍ.

١٠- **وَأَمَّا حَيَاءُ المَرْءِ مِنْ نَفْسِهِ**: فَهُوَ حَيَاءُ النُّفُوسِ الشَّرِيفَةِ الْعَزِيزَةِ الرَّفِيعَةِ مِنْ رِضَاهَا لِنَفْسِهَا بِالنَّقْصِ، وَقَنَاعَتِهَا بِالدُّونِ، فَيَجِدُ نَفْسَهُ مُسْتَحْيِيًا مِنْ نَفْسِهِ، حَتَّى كَأَنَّ لَهُ نَفْسَيْنِ، يَسْتَحْيِي بِإِحْدَاهُمَا مِنَ الأُخْرَى، وهَذَا أَكْمَلُ مَا يَكُونُ مِنَ الحَيَاءِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اسْتَحْيَى مِنْ نَفْسِهِ فَهُوَ بِأَنْ يَسْتَحْيِيَ مِنْ غَيْرِهِ أَجْدَر[1].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦١ - ٢٦٤) بتصرف.

مِمَّ يَتولَّدُ الحياءُ؟

قَالَ أَبُو الفِدَا إِسْمَاعِيلُ الْهَرَوِيُّ في «مَنَازِلِ السَّائِرِينَ»: «الْحَيَاءُ مِنْ أَوَّلِ مَدَارِجِ أَهْلِ الْخُصُوصِ يَتَوَلَّدُ مِنْ تَعْظِيمٍ مَنُوطٍ بِوُدٍّ»(١).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: يَعْنِي أَنَّ الحَيَاءَ حَالَةٌ حَاصِلَة مِنَ امْتِزَاجِ التَّعْظِيمِ بِالمَوَدَّةِ، فَإِذَا اقْتَرَنَا تَوَلَّدَ بَيْنَهُمَا الحَيَاءُ(٢).

وَقَالَ بعضهم: تَوَلُّدُهُ مِنْ شُعُورِ القَلْبِ بِمَا يُسْتَحْيَى مِنْهُ، وَنُفْرَتِهِ عَنْهُ، فَيَتَوَلَّدُ مِنْ هَذَا الشُّعُورِ والنُّفْرَةِ حَالَةٌ هِيَ الحَيَاءُ(٣).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ: وَلَا تَنَافِيَ بَيْنَ هَذِهِ الأَقْوَالِ، لأَنَّ لِلْحَيَاءِ عِدَّةَ أَسْبَابٍ، وَكُلٌّ أَشَارَ إِلَى بَعْضِهَا(٤).

وَقَدْ يَتَوَلَّدُ الحَيَاءُ مِنْ عِلْمِ العَبْدِ بِنَظَرِ الحَقِّ إِلَيْهِ، فَيَجْذِبُهُ ذَلِكَ إِلَى تَحَمُّلِ المُجَاهَدَةِ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى اسْتِقْبَاحِ الجِنَايَةِ، وَيُسْكِتُهُ عَنِ الشَّكْوَى(٥).

وقد يتولد الحياء من «مشهد النعمة والإحسان»، فإن الكريم لا يقابل بالإساءة من أحسن إليه، وإنما يفعله اللئيم، فيمنعه - أي الكريم -،

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧٤) نقلاً عن «منازل السائرين».

(٢) «نفسه».

(٣) «نفسه» (٢/ ٢٧٥).

(٤) «نفسه».

(٥) «نفسه».

مشهد إحسانه إليه، ونعمته عليه من عصيانه حياءً منه أن يكون خيره وإنعامه نازلاً عليه، ومخالفته صاعدة إليه، فمَلَكٌ ينزل بهذا، ومَلَك يعرج بهذا، فأقبح به من مقابلة!

قال الجنيد رحمه الله: «الحياء رؤيةُ الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى الحياء، وحقيقته خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق»(١).

فإذا كان الإنسان يخزى أن يسيء إلى من أحسن إليه من البشر، ويستحيي ممن أسدى إليه معروفًا أن يقابله بالنُّكْر، فكيف لا يستحيي الإنسان من ربه واهبِ النعم التي لا تُحصى.

قال محمد بن عليٍّ الترمذيُّ: «اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل طاعتك لمن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه»، فلو لم يرد بالحياء شرع، لاستلزمه العقل واستحسنه، قال الشاعر:

هَبِ(٢) البعثَ لم تأتنا رسلُه ... وجاحِمةَ النارِ لم تُضْرَمِ
أليس مِن الواجب المستحَقِّ ... حياءُ العباد من المنعمِ

عن يوسف بن الحسين قال: سمعت ذا النون يقول: لله عباد تركوا الذنب استحياء من كرمه بعد أن تركوه خوفًا من عقوبته، ولو قال لك: «اعمل ما شئت، فلست آخذك بذنب»؛ كان ينبغي لك أن يزيدك كرمه استحياء منه، وتركًا لمعصيته إن كنت حرًّا كريمًا عبدًا شكورًا، فكيف

(١) «رياض الصالحين» ص (٢٤٦).

(٢) هب: بمعنى ظُنَّ وافترض، وهو فعل جامد ملازم للأمرية.

وقد حذرك[١]؟!

عن محمد بن الفضل قال: الحياء يتولد من النظر إلى إحسان المحسن، ثم من النظر إلى جفائك إلى المحسن، فإذا كنت كذلك؛ رُزِقْتَ الحياءَ إن شاء الله[٢].

وقال ذو النون: اعلموا أن الذي أهاج الحياء من الله عز وجل معرفتهم بإحسان الله إليهم، وعلمهم بتضييع ما افترض الله عليهم من شكره، وليس لشكره نهاية، كما ليس لعظمته نهاية[٣].

تائب تجري دموعي ندمًا يا لِقلبي من دموع الندمِ
ليتني ذُبْتُ حياءً كلما جدَّد العفوُ عطاءَ المنعمِ

حياء الجناية:

روى قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجمع الله الناس يوم القيامة، فيهتمون لذلك، فيقولون: «لو استشفعنا إلى ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا؟»، قال: فيأتون آدم، فيقولون: «أنت آدم أبو الخلق، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا»، فيقول: «لستُ هناكم» فيذكر خطيئته[٤] التي أصاب، فيستحيي ربه منها، «ولكن ائتوا**

(١) «شعب الإيمان» رقم (٧٧٤٥).

(٢) «نفسه» رقم (٧٧٤٤).

(٣) «نفسه» رقم (٧٧٤٢).

(٤) ما نسب إلى الأنبياء عليهم السلام من معصية إما أنه فعلٌ حَسِب النبي أنه يرضي الله عز وجل فلم يوافق رضى الله، أو أنه من باب ترك الأوْلى، ومن باب «حسنات الأبرار سيئات المقربين»، فالأنبياء عليهم السلام معصومون من أن يقع منهم ما يُزرِي

نوحًا أولَ رسولٍ بعثه الله إلى أهل الأرض»، قال: فيأتون نوحًا، فيقول: «لست هناكم»، فيذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيى ربَّه منها، «ولكن ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً»، فيأتون إبراهيم، فيقول: «لست هناكم»، وذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، «ولكن ائتوا موسى الذي كلمه الله، وأعطاه التوراة»، قال: فيأتون موسى، فيقول: «لست هناكم»، ويذكر خطيئته التي أصاب، فيستحيي ربه منها، «ولكن ائتوا عيسى رُوحَ الله وكلمته»، فيأتون عيسى روح الله وكلمته، فيقول: «لست هناكم، ولكن ائتوا محمدًا، عبدًا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»، قال: قال رسول الله ﷺ: «فيأتونني، فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدًا، فيدعني ما شاء الله، فيقال: يا محمد، ارفع، قل يُسمع، سل تعطه، اشفع تُشَفَّعْ» الحديث[١].

وعن محمد بن حاتم قال: قال الفضيل بن عياض: «لو خُيِّرتُ بين أن أُبعث فأدخل الجنة، وبين أن لا أبعث؛ لاخترت أن لا أبعث»، قيل لمحمد بن حاتم: هذا من الحياء؟ قال: نعم، هذا من طريق الحياء من الله عز وجل.

بمراتبهم العالية، ومناصبهم السامية، ولو فرضنا أنه وقع منهم شيء من المخالفة فإنهم يتداركون ذلك بالتوبة والإخلاص، وصدق الإنابة إلى الله عز وجل حتى ينالوا بذلك أعلى الدرجات، فتكون درجاتهم بذلك أعلى من درجة من لم يرتكب شيئًا من ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

وقد استقصى الإمام ابن حزم رحمه الله في «الفِصَل» ما يَرِد من الشبهات على عصمة الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، في بحث مدهش، فراجعه (٤/ ٢-٢٥)، وانظر: «الرسل والرسالات» للدكتور عمر الأشقر ص (٩٧- ١١٢).

(١) رواه البخاري في «التوحيد» (١٣/ ٣٩٢) رقم (٧٤١٠)، ومسلم رقم (١٩٤).

وعن علقمة بن مرثد قال: «كان الأسود يجتهد في العبادة، ويصوم حتى يخضر ويصفر، فلما احتُضِر بكى، فقيل له: «ما هذا الجزع؟»، قال: «ما لي لا أجزع؟ ومن أحق بذلك مني؟ والله لو أُتيت بالمغفرة من الله عز وجل لأهمَّني الحياء منه مما قد صنعت، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنبُ الصغير فيعفو عنه، ولا يزال مستحييًا منه».

وأنشد بعضهم:

يا حسرةَ العاصين عند معادهم هذا وإن قدموا على الجناتِ
لو لم يكن إلا الحياءُ من الذي ستر القبيح لكان أعظم الحسراتِ

وقال الحسن: «لو لم نبك إلا للحياء من ذلك المقام؛ لكان ينبغي لنا أن نبكي فنطيل البكاء».

يا كاتمَ السرِّ ومخفيه أين من الله تواريه
بارزتَ بالعصيان ربَّ العُلى وأنت من جارك تخفيه[1]

وروي عن أبي حامد الخلقاني أنه أنشد الإمام أحمد هذين البيتين:

إذا ما قال لي ربي أما استحييتَ تَعصيني
وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني

فأمره أحمد بإعادتهما عليه، فأعادهما عليه، فدخل أحمد داره، وجعل يرددهما، ويبكي.

وشهد الفضيل رحمه الله الموقف الأشرف في عرفات، فرفع رأسه إلى السماء، وقد قبض على لحيته، وهو يبكي بكاء الثكلى، ويقول: «واسوأتاه منك، وإن عفوت!».

---

(١) «شعب الإيمان» (٥/ ٤٦٠).

يا خجلةَ العبدِ من إحسان سيده　　يا حسرةَ القلب من ألطاف معناهُ
فكم أسأتُ وبالإحسان قابلني　　واخجلتي واحيائي حين ألقاه
يا نفسُ كم بخفيِّ اللطف عامَلَني　　وقد رآني على ما ليس يرضاه
يا نفس كم زلةٍ زلت بها قدمي　　وما أقال عِثاري ثَمَّ إلا هُوْ
يا نفسُ توبي إلى مولاكِ واجتهدي　　وصابري فيه إيقانًا برؤياهُ



فصل

فضائل الحياء

أولًا: الحياء مِفتاح كل خير

ويكفى الحياءَ خيرًا؛ كونُه على الخير دليلًا، إذ مبدأ الحياء انكسار وانقباض يلحق الإنسان مخافةَ نسبته إلى القبيح، ونهايته ترك القبيح، وكلاهما خير، عن أبي نُجيد عِمران بن حصين الخزاعي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»(١)، فقال بُشَيْرُ بن كعب(٢): «مكتوب في الحكمة(٣): إن منه وقارًا(٤)، ومنه سكينة(٥)»، فقال عمران: «أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتحدثني عن صحفك؟».

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب: باب الحياء (١٠/ ٥٢١)، رقم (٦١١٧)، ومسلم رقم (٣٧)، وأبو داود (٤٧٩٦)، وأحمد (٤/ ٤٢٧).

(٢) بضم الموحدة، وفتح المعجمة مصغرًا، العدوي البصري التابعي الجليل.

(٣) الحكمة: هي العلم الذي يُبحث فيه عن أحوال حقائق الموجودات، وقيل: العلم المتقن الوافي، كذا في «الفتح الرباني» (١٩/ ٩٣).

(٤) أي : حِلمًا ورزانة.

(٥) أي دعة وسكونًا، وفي رواية لمسلم: «إن منه سكينة، ووقارًا لله، ومنه ضعف»، قال الحافظ: «وهذه الزيادة متعينة، ولأجلها غضب عمران» اهـ.، وقال في «الكواكب»: «إنما غضب لأن الحجة إنما هي في سنة رسول الله ﷺ، لا فيما يُروى عن كتب الحكمة، لأنه لا يدري ما في حقيقتها، ولا يعرف صدقها»، وقال القرطبي: «إنما أنكر عليه من حيث إنه ساقه في معرض مَن يعارض كلامَ النبوة بكلام غيره، وقيل: لكونه خاف أن يخلط السنة بغيرها، وإلا فليس في ذكر السكينة والوقار ما ينافي كونه خيرًا». اهـ. من «الفتح الرباني» (١٩/ ٩٣).

ورواه حميد بن هلال عن بُشَير بن كعب عن عِمران بن حصين – رضي الله عنهما– قال: قال رسول الله ﷺ: « **الحياء خير كله**» فقال بشير: فقلت: «إن منه ضعفًا، وإن منه عجزًا»[١]، فقال: «أحدثك عن رسول الله ﷺ، وتجيئني بالمعاريض[٢] ؟ لا أحدثك بحديث ما عرفتك»، فقالوا: «يا أبا نجيد إنه طيب الهوى[٣]، وإنه، وإنه.»، فلم يزالوا به حتى سكن، وحَدَّث.

---

(١) معناه أنه قد يستحيي أن يواجه بالحق من يستحييه، فيدع أمره بمعروف ونهيه عن منكر، وقد يحمله على إخلاله ببعض الحقوق، وغير ذلك مما يُعرف عادة.

والجواب عن ذلك: أن هذا المانع ليس من الحياء حقيقة، بل هو عجز وخور ومهانة، وإنما يطلِق عليه أهل العرف حيّاء مجازًا، أما الحياء الحقيقي فهو خُلُق يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق كل ذي حق.

(٢) جاء عند مسلم و أبي داود: «فغضب عمران حتى احْمَرَّت عيناه»، قال النووي رحمه الله: «وأما إنكار عمران رضي الله عنه فلكونه قال: «منه ضعف» بعد سماعه قولَ النبي ﷺ: «**إنه خير كله**».

ومعنى قوله: «وتجيئني بالمعاريض» أي تأتي بكلام في مقابلته، وتعترض بما يخالفه.

(٣) جاء عند مسلم: «إنه مِنَّا أبا نجيد، إنه لا بأس به» ومعنى طيب الهوى: أي طيب القلب لا يقصد سوءًا، قال النووي: «وقولهم: «إنه مِنَّا لا بأس به» معناه: ليس هو ممن يتهم بنفاق أو زندقة أو بدعة وغيرها مما يخالف به أهل الاستقامة، والله أعلم» اهـ.

تنبيه: نستطيع في ضوء ما تقدم أن نرد ما زعمه الراغب في «الذريعة» (ص ١٤٥) من أن «الحياء مركب من **جُبْن** وعفة، ولذلك لا يكون المستحيي فاسقًا، ولا الفاسق مستحييًا، لتنافي اجتماع العفة والفسق، وقلَّ ما يكون الشجاع مستحييًا، والمستحيي شجاعًا، لتنافي اجتماع **الجبن** والشجاعة» اهـ. لأن قوله: «جبن» توأم قول بشير لعمران رضي الله عنه «ضعف، وعجز»، وكلاهما تَعَرُّضٌ لعموم قول الصادق المصدوق ﷺ: «**الحياء خير كله**» وقد قال ابن شهاب الزهري: «دَعُوا السنة تمضي، لا تعرضوا لها بالرأي».

دعوا كل قولٍ عند قول محمدٍ فما آمِنٌ في دينه كمخاطرِ

والرجل الفاضل الحيي يتخوف على مكارمه ومحامده أن يضيع بهاؤها، وينطفئ سناؤها، =

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى- ما ملخصه:

«وَخُلُقُ الحَيَاءِ مِنْ أَفْضَلِ الأَخْلَاقِ وَأَجَلِّهَا وَأَعْظَمِهَا قَدْرًا وَأَكْثَرِهَا نَفْعًا، بَلْ هُوَ خَاصَّةُ الإِنْسَانِيَّةِ، فَمَنْ لَا حَيَاءَ فِيهِ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا اللَّحْمُ وَالدَّمُ وَصُورَتُهُمَا الظَّاهِرَةُ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الخَيْرِ شَيْءٌ، وَلَوْلَا هَذَا الخُلُقُ لَمْ يُقْرَ الضَّيْفُ، وَلَمْ يُوفَ بِالوَعْدِ، وَلَمْ تُؤَدَّ أَمَانَةٌ، وَلَمْ تُقْضَ لأَحَدٍ حَاجَةٌ، وَلَا تَحَرَّى الرَّجُلُ الجَمِيلَ فَآثَرَهُ، وَالقَبِيحَ فَتَجَنَّبَهُ، وَلَا سَتَرَ لَهُ عَوْرَةً، وَلَا امْتَنَعَ مِنْ فَاحِشَةٍ، وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَوْلَا الحَيَاءُ الَّذِي فِيهِ لَمْ يُؤَدِ شَيْئًا مِنَ الأُمُورِ الْمُفْتَرَضَةِ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَرْعَ لِمَخْلُوقٍ حَقًّا، وَلَمْ يَصِلْ لَهُ رَحِمًا، وَلَا بَرَّ لَهُ وَالِدًا؛ فَإِنَّ البَاعِثَ عَلَى هَذِهِ الأَفْعَالِ إِمَّا دِينِيٌّ، وَهُوَ رَجَاءُ عَاقِبَتِهَا الحَمِيدَةِ، وَ إِمَّا دُنْيَوِيٌّ عُلْوِيٌّ، وَهُوَ حَيَاءُ فَاعِلِهَا مِنَ الخَلْقِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّهُ لَوْلَا الْحَيَاءُ إِمَّا مِنَ الْخَالِقِ أَوْ مِنَ الْخَلَائِقِ لَمْ يَفْعَلْهَا صَاحِبُهَا».

= بما يجرح الشعور، ويُحرج الوجدان، فحياء مثل هذا من أمارات الشجاعة، لأن الحيي الكريم يجود بإراقة دمه، ويفضِّل ذلك على إراقة ماء وجهه، فتراه يستحيي من الفرار، ويتقي العار، وهذا من أعلى الشجاعة، وقد قرنت العرب بين المدح بالشجاعة والمدح بالحياء، نحو قول الشاعر:

يجري الحياء الغضُّ من قَسَماتهم   في حين يجري من أكفهمُ الدمُ

وقول الآخر:

كريم يغض الطرف فضل حيائه   ويدنو وأطراف الرماح دواني

وقول ليلى الأخيلية:

فتى هو أحيا من فتاة حيية   وأشجعُ من ليث بخِفَّانِ خادِرِ

تعني: أشجع من أسد مقيم في غِيلِ من الشجر، وهو الشجر العظيم الملتف.

وخِفَّان: موضع قرب الكوفة، وهي مأسدة، والأسد الخادر: المقيم في عرينه، وهو خِدره.

ثُمَّ قَالَ - رَحِمَهُ اللهُ - إِنَّ لِلإِنْسَانِ آمِرَيْنِ وَزَاجِرَيْنِ، آمِرٌ وَزَاجِرٌ مَنْ جَهَةِ الحَيَاءِ، فَإِذَا أَطَاعَهُ امْتَنَعَ مِنْ فِعْلِ كُل مَا يَشْتَهِي، وَلَهُ آمِرٌ وَزَاجِرٌ مَنْ جِهَةِ الهَوَى وَالطَّبِيعَةِ، فَمَنْ لَمْ يُطِعْ آمِرَ الحَيَاءِ وَزَاجِرَهُ، أَطَاعَ آمِرَ الهَوَى والشَّهْوَةِ وَلَا بُدَّ»[١] اهـ.

ثانيًا: الحياء من خصائص الفطرة الإنسانية

الحياء من خصائص الإنسان، وغريزة فيه، وإن كان استعماله على وفق الشرع يحتاج إلى اكتساب وعلم ونية، فإنه يردع عن ارتكاب كل ما يشتهيه فلا يكون كالبهيمة[٢].

ثالثًا: الحياء إيمان

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**الحياء والإيمان قُرِنا جميعًا، فإذا رُفِعَ أحدُهما، رُفِعَ الآخر**»[٣].

قال الطيبي: «فيه رائحة التجريد[٤]، حيث جرد من الإيمان شعبة منه، وجعلها قرينة له على سبيل الاستعارة، كأنهما رضيعا لبان ثدي، تقاسما على أن لا يفترقا»[٥] اهـ.

---

(١) بتصرف من «مفتاح دار السعادة» ص (٢٧٧).

(٢) تقدم الكلام على الحياء الغريزي ص (١٢) .

(٣) رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٢)، وقال: «صحيح على شرطهما»، وأقره الذهبيُّ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣١٩٥).

(٤) التجريد: عزل صفة أو علاقة عزلًا ذهنيًا، وقَصْرُ الاعتبار عليها، أو: ما يترتب على ذلك.

(٥) نقله عنه في «فيض القدير» (٣/ ٤٢٦).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: «الحياء والإيمان في طَلَقٍ[١]، فإذا انتُزع أحدُهما من العبد؛ اتبعه الآخر»[٢].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ مَرَّ على رجل من الأنصار، وهو يعظ[٣] أخاه في الحياء[٤]، - وفي رواية: وهو يعاتب أخاه على الحياء، يقول: «إنك لتستحيي»، حتى كأنه يقول: «قد أَضَرَّ بك»، فقال رسول الله ﷺ: **«دعه[٥]، فإن الحياء من الإيمان»**[٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»**[٧].

---

(١) «الطَّلق ها هنا: حَبْل مفتول شديد الفتل: أي هما مجتمعان لايفترقان، كأنهما قد شُدَّا في حبلٍ أو قيد» اهـ. من «النهاية» لابن الأثير (٣/ ١٣٤).

(٢) «شعب الإيمان» رقم (٧٧٢٥).

(٣) الوعظ: زجر يقترن بتخويف، وكان ينصح له أن لا يُكثر منه، ويذكر ما يترتب على ملازمته من المفسدة وضياع المال وخسران الربح، كما في «فضل الله الصمد» (٢/ ٦١).

(٤) (في) هنا سببية، وكان الأخ كثير الحياء، فكان ذلك يمنعه من استيفاء حقوقه.

(٥) [«دعه» أي اتركه على هذا الخلق السَّني، ثم زاده في ذلك ترغيبًا لحكمه بأنه من الإيمان، وإذا كان الحياء يمنع صاحبه من استيفاء الحق جَرَّ له ذلك تحصيل أجر ذلك الحق، ولا سيما إذا كان المتروك له مستحقًّا، والظاهر: أن الناهي ما كان يعرف أن الحياء من مكملات الإيمان، فلهذا وقع التأكيد، وقد يكون التأكيد من جهة أن القضية في نفسها مما يهتم به، وإن لم يكن هناك منكر] اهـ.من «فضل الله الصمد» (٢/ ٦١).

(٦) رواه البخاري في الأدب: باب الحياء (١٠/ ٤٣٣)، ومسلم رقم (٣٦).

(٧) رواه البخاري في «الإيمان» باب أمور الإيمان (١/ ٥١ - فتح) رقم (٩)، ومسلم - واللفظ له - رقم (٣٥)، وغيرهما.

ويُروى عن سليمان عليه السلام: «الحياء نِظام[1] الإيمان، فإذا انحل النظامُ ذهب ما فيه»[2].

وقال إياس بن قرة: كنت عند عمر بن عبدالعزيز فذُكِر عنده الحياء، فقالوا: الحياء من الدين، فقال عمر: «بل هو الدين كله»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«الحياء من الإيمان[4]، والإيمان في الجنة، والبَذاء[5] من الجفاء[6]، والجفاء في النار»**[7].

فجعل ﷺ البذاءة مقابلة للحياء، وقريب من البذاءة الفحش والوقاحة، قال ﷺ: **«ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه»**[8].

---

(١) النظام: الخيطُ يُنْظَم فيه اللؤلؤ وغيره، ويقال: نظام الأمر: قِوامُه وعِماده.

(٢) ذكره ابن مفلح في «الآداب الشرعية» (٢/ ٢٧٧).

(٣) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا ص (١٩).

(٤) انظر شرح معناه ص (٣٥) وما بعدها.

(٥) البذاءة: لغةً: السفاهة، والفحش في المنطق، وإن كان الكلام صدقًا، والفحش: ما اشتد قبحه من ذنوب ومعاصٍ، ويجري أكثر ذلك في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به، فإن لأهل الفساد عباراتٍ صريحةً فاحشة، أما أهل الصلاح فيتحاشون ذلك، ويعبرون عنه بغير لسانهم، أو بالكناية عن كل ما يُستحيى منه من الألفاظ.

(٦) الجفاء : الطرد، والإعراض، وترك الصلة والبر.

(٧) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ٥٠١)؛ والترمذي (٢٠١٠)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه ابن حبان (١٩٢٩)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (٣٣٨١)، و«فيض القدير» (٣/ ٤٢٨).

(٨) رواه الترمذي (١٩٧٤)، في البر والصلة، وقال: «حديث حسن غريب»، =

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمنين يومَ القيامة خلق حسن، وإن الله يُبغِض الفاحشَ البذيء**»[1].

وقال الفضيل بن عياض: «خمس من علامات الشِّقوة: القسوةُ في القلب، وجمودُ العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطولُ الأمل»[2].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا صَخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح»[3].

وعن عبد الله بن عمرٍو رضي الله عنهما قال: «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: إن من خياركم أحاسنكم أخلاقًا»[4].

قال أبو حاتم: «فإذا لزم المرء الحياء كانت أسباب الخير منه موجودة، كما أن الواقِح إذا لزم البذاء كان وجود الخير منه معدومًا، وتواتر الشر منه موجودًا، لأن الحياء هو الحائل بين المرء وبين المزجورات كلها، فبقوة الحياء يضعف ارتكابه إياها، وبضعف الحياء

= وابن ماجة (٤١٨٥) في الزهد، والبغوي في «شرح السنة» رقم (٣٥٩٦)، وعبدالرزاق في «المصنف» (٢٠١٤٥)، وقال محقق «شرح السنة» : «سنده صحيح».

(١) أخرجه بنحوه الترمذي رقم (٢٠٠٢) في البر والصلة، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، والبغوي في «شرح السنة» رقم (٣٤٩٦)، وأخرج صدره الإمام أحمد (٦/ ٤٤٢)، وأبو داود (٤٧٩٩)، وقال محقق «شرح السنة»: «سنده صحيح».

(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٧١).

(٣) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» رقم (٨٢٩٧).

(٤) رواه البخاري (٦/ ٥٦٦) رقم (٣٥٥٩).

تقوى مباشرته إياها»[١] اهـ.

وأنشد محمد بن عبد الله البغدادي:

إذا قلَّ ماءُ الوجه قلَّ حياؤه فلا خير في وجهٍ إذا قل ماؤُه
حياءك فاحفظه عليك فإنما يدل على وجه الكريم حياؤه[٢]

وقال سليمان: «إذا أراد الله بعبدٍ هلاكًا نزع منه الحياء، فإذا نُزِع منه الحياء لم تلقه إلا مقيتًا مُمَقَّتًا»[٣].

وقال العَرجيُّ:

إذا حُرم المرءُ الحياءَ فإنه بكل قبيح كان منه جديرُ
له قِحَةٌ[٤] في كل شيء وسِرُّه مباحٌ وخِدناه[٥] خنًا[٦] وغرورُ

دفع إشكالين:

الأول:

قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الحياء شعبة من الإيمان**»[٧].

---

(١) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» ص (٥٨).

(٢) انظر: «الآداب الشرعية» (٢/ ٢٢٧).

(٣) «مكارم الأخلاق» ص (٨٩).

(٤) وَقَحَ حافر الدابة يَقِحُ قِحَةً: صَلُبَ، فهو واقح، ووَقُحَ الرجلُ: قل حياؤه، واجترأ على اقتراف القبائح، ولم يعبأ بها، يقال: رجل وَقَاحُ الوجه: قليل الحياء.

(٥) الخِدْن: الصديقُ، والصديقُ في السر.

(٦) الخَنا: الفحش في الكلام.

(٧) تقدم ص (٣٢).

قال بعضهم: كيف جعل الحياء - وهو غريزة -شعبة من الإيمان - وهو اكتساب؟

والجواب في ذلك: أن المستحيي ينقطع بالحياء عن المعاصي، فصار كالإيمان الذي يقطع عنها، ويحول بين المؤمن وبينها[١].

وقال ابن الأثير في هذا الحديث:

«.. وإنما جعله بعض الإيمان لأن الإيمان ينقسم إلى:

ائتمار بما أمر الله به، وانتهاءٍ عما نهى الله عنه، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان»[٢].

وحكى الإمام النووي -رحمه الله- عن القاضي عياض قوله: «إنما جعل الحياء من الإيمان- وإن كان غريزة - لأنه قد يكون تخلقًا واكتسابًا، كسائر أعمال البر، وقد يكون غريزة، ولكن استعماله على قانون الشرع يحتاج إلى اكتساب، ونية، وعلم، فهو من الإيمان بهذا، ولكونه باعثًا على أفعال البر، ومانعًا من المعاصي»[٣] اهـ.

أما إذا سُلب العبدُ الحياءَ المكتسب والغريزي، فإنه لا يبقى له ما يحجزه عن القبائح والدنايا، فصار كأنه لا إيمان له، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبَذاءَ من الجفاء، والجفاء في النار**»[٤].

---

(١) «لسان العرب» (١٤/ ٢١٧).

(٢) «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٤٧٠).

(٣) «شرح النووي لصحيح مسلم» (٢/ ٥).

(٤) تقدم تخريجه ص(٣٣).

الثاني:

إذا كان الحياء من الإيمان؛ فماذا عن وجود حياء ظاهر عند بعض الكافرين؟

والجواب بمعونة الملكِ الوهاب:

- أن الحياء الذي هو شعبة من شعب الإيمان هو الحياء الشرعي التكليفي، الذي لابد فيه من اكتساب ونية، والحياء الذي قد يوجد عند الكافر هو الحياء الغريزي الجبلي، ولا مانع من أن يوجد في كافرٍ تبقى لديه من رصيد الفطرة السوية قدر لم تفسده العوامل البيئية.

- والحياء الشرعي يفتقر إلى نية التقرب به إلى الله تعالى، ولا يصح ذلك من كافر لعدم صحة نيته[1]، لأنه لا يعرف ربه.

- ولو تَدَيَّن الكافر باكتساب الحياء، فإن قصارى ذلك أن يكون متقربًا إلى الله بشعبة من شعب الإيمان، ولا يلزم من ذلك أن يكون مؤمنًا، ومن المعلوم أن شعبة «لا إله إلا الله» التي هي أعلى شعب الإيمان؛ شرط في صحة كل ما بعدها من الشعب[2]، فمهما أتى العبد بشعب الإيمان بدون أن يأتي بشهادة التوحيد فإنها باطلة لا تصح ولا تنفعه في الآخرة، لكن قد يشاء الله[3] تعالى مكافأته عليها في الدنيا فقط، لقوله ﷺ: «**إن الله لا يظلم مؤمنًا حسنة، يُعطَى بها في الدنيا،**

(١) يشترط لصحة النية أن يكون مَن صدرت عنه النية من الذين تصح منهم العبادة أي مسلمًا عاقلًا مميزًا.

(٢) انظر: «كتاب الصلاة وحكم تاركها» لابن القيم ص (٣١-٣٢) - ط. المكتبة السلفية - ط. ثانية ١٣٩١هـ.

(٣) لقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها»(١).

فائدة:

قال ابن قتيبة رحمه الله تعالى: «إن الحياء يمنع صاحبه من المعاصي كما يمنع الإيمان، فسمي إيمانًا كما يسمى الشيء باسم ما قام مقامه، وأفرده بالذكر لأنه كالداعي إلى باقي الشعب، إذ الحييُّ يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينزجر، وهو أساس التقوى، وهو من مبادئ الإيمان، ووجود المبدإ غير وجود الشيء، والأساس غير البنيان، نعم وجود المبدإ والأساس يدل أن الشيء كاد أن يوجد، فلا يغرنك كون بعض الكفرة ذا حياء، لأن الانهماك والاشتغال في الدنيا لم يرزقه الإيمان، وإن وصل إلى فيه، والغفلة تمنعه أن تنبت فيه شجرة الإيمان، وتزهو، وتثمر، فالكافر الحيي كاد أن يدخل الباب، ولما يدخل، فمن استحيى من الله لا يفقده حيث أمره، ولا يجده حيث نهاه»(٢) اهـ.

رابعًا: الحياء أبهى زينة

فإن الوجه المصون بالحياء، كالجوهر المكنون في الوعاء، ولن يتزين إنسان بزينة هي أبهى ولا أجمل من الحياء، عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**ما كان الفُحْشُ في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه**»(٣).

(١) رواه مسلم (٤/ ٢١٦٢)، والإمام أحمد (٣/ ١٢٣)، وانظر مقالة المؤلف: «أعمال الكافر هل تنفعه؟» بمجلة «بريد الإسلام»، العدد الثالث ص (٧ : ١٢).

(٢) نقله عنه في «فضل الله الصمد» (٢/ ٥٥).

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٧٤) في البر والصلة، وابن ماجه (٤١٨٥)، وعبد الرزاق=

وقوله: «شانه» أي: عابه، والشين: العيب، قال الطيبي: «فيه مبالغة، أي لو قدر أن يكون الفحش أو الحياء في جماد لشانه أو زانه، فكيف بالإنسان؟ وأشار بهذين إلى أن الأخلاق الرذلة مفتاح كل شر، بل هي الشر كله، والأخلاق الحسنة السنية مفتاح كل خير، بل هي الخير كله»[(١)] اهـ.

فمِن ثَم قيل: الإيمان عُريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء».

عن ابن الأعرابي: قال بعض العرب:

إني كأني أرى مَنْ لا حياءَ له ولا أمانةَ وَسْطَ القوم عُرْيانا

= في «المصنف» (٢٠١٤٥)، وقال الترمذي: «حسن غريب»، وصححه الألباني.

(١) نقله عنه المناوي في «الفيض» (٥/ ٤٦١).

خامسًا: الحياء من صفات الله عز وجل

إن الله - سبحانه وتعالى- حيي ستير، يستحيي مِن عبده إذا دعاه أن يرده خائبًا صِفْرَ اليدين، ويستحيي من أن يفضحه يوم القيامة بعد أن ستره في الدنيا، ويستحيي أن يعذب الرجل أو المرأة وقد شاب شعرهما في الإسلام.

فعن سلمان - رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله حَيِيٌ كريم، يستحيي إذا رفع الرجلُ إليه يديه أن يردَّهما صِفْرًا خائبتين**»(١).

وعن يعلى بن أمية - رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى حَيِيٌ ستيرٌ يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**»(٢).

ورُوي عن أنس بن مالك - رضي الله عنه- مرفوعًا: «**إن الله - عز وجل- يستحيي من ذي الشيبة المسلم إذا كان مسدَّدًا لَزومًا للسنة أن يسأل الله فلا يعطيه**»(٣).

وكل نص يرد فيه وصفه تعالى بالحياء، فهو حياء محمول على معنى يليق به سبحانه وتعالى، ولا يشبه حياء المخلوقين ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/ ٧٨)، والترمذي (٥/ ٥٥٦)، وانظر: «صحيح الترمذي» (٣/ ١٧٩)، و«صحيح ابن ماجه» (٢/ ٣٣١).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٤٠)، والنسائي (١/ ٢٠٠)، والبيهقي (١/ ١٩٨)، والإمام أحمد (٤/ ٢٢٤)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٧/ ٣٦٧)، وصحيح النسائي (١/ ٨٧).

(٣) قال الهيثمي: (رواه الطبراني في الأوسط، وفيه صالح بن راشد، وثقه ابن حبان، وفيه ضعف، وبقية رجاله ثقات) ا هـ. من «مجمع الزوائد» (١٠/ ١٤٩)، ورواه ابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٢٣)، وقال الألباني: «إسناده ضعيف».

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية -رحمه الله-: «وأما حياء الرب تعالى من عبده، فذاك نوع آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول، فإنه حياء كرم، وبر، وجود، وجلال، فإنه تبارك وتعالى حييٌّ كريم، يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا، ويستحيي أن يعذب ذا شيبة شابت في الإسلام»[(١)] اهـ.

وقال المباركفوري -رحمه الله-: «قوله: «إن الله حييٌّ» فعيل من الحياء، أي كثير الحياء، ووصفه تعالى بالحياء يُحمل على ما يليق له كسائر صفاته نؤمن بها، ولا نكيفها»[(٢)] اهـ.

فالله -عز وجل- مع كمال غناه عن الخلق كلهم من كرمه يستحيى من هتك العاصي، وفضيحته، وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويعفو عنه، ويغفر له، ويتحبب إليه بالنعم، ويستحيي ممن يمد يديه إليه سائلاً متذللاً أن يردهما خاليتين خائبتين.

ومعنى «يحب الحياء» أي من اتصف به، قال التوربشتي: «وإنما كان الله يحب الحياء والستر لأنهما خصلتان يفضيان به إلى التخلق بأخلاق الله»[(٣)]» اهـ.

وقال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية -رحمه الله تعالى-: «. . . من وافق الله في صفة من صفاته قادته تلك الصفة إليه بزمامها، وأدخلته على

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦١).

(٢) «تحفة الأحوذي» (٩/ ٥٤٤).

(٣) نقله عنه في «فيض القدير» (٢/ ٢٢٨)، وحديث «تخلَّقوا بأخلاق الله» لا يُعرف له أصل في شيء من كتب السنة، انظر «شرح العقيدة الطحاوية» بتحقيق شعيب الأرناؤوط(١/ ٨٨).

ربه، وأدنته وقربته من رحمته، وصيَّرته محبوبًا له؛ فإنه سبحانه رحيم يُحب الرحماء، كريم يحب الكُرماء، عليم يحب العلماء، قوي يحب المؤمن القوي، وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف، حَيِيٌ يُحب أهل الحياء، جميل يحب أهل الجمال، وتر يحب أهل الوتر»[1] اهـ.

(١) «الجواب الكافي» ص (٧٧).

فصـل

رُوِيَ في أثر إلهي: يقول الرب عز وجل: «**ما أنصفني عبدي، يدعوني فأستحيي أن أَرُدَّه، ويعصيني، ولا يستحيي مني**»(١).

وقال يحيى بن معاذ: «سبحان من يذنب عبده، ويستحيي هو»، وعنه - رحمه الله - أنه قال: «من استحيى من الله مطيعًا، استحيى الله منه وهو مذنب»(٢).

وشرحه ابن القيم فقال:

«من غلب عليه خلق الحياء من الله حتى في حال طاعته؛ فقلبه مُطرِقٌ بين يَدَيْ ربه إطراقَ مُسْتَحْيٍ خَجِل، فإذا واقع ذنبًا استحيى الله عز وجل من أن ينظر إليه في تلك الحالة لكرامته عليه، فيستحي أن يرى من وليه، ومن يَكرم عليه ما يشينه عنده. . ، وفي واقع الحياة ما يشهد لذلك، فإن الرجل إذا اطلع على أَخَصِّ الناس به، وأحبهم إليه، وأقربهم منه من ولدٍ أو صاحب، أو ممن يحب من غيرهم وهو يخونه؛ فإنه يلحقه من ذلك الاطلاع حياء عجيب، حتى كأنه هو الجاني، وذلك غاية الكرم»(٣).

---

(١) «مدراج السالكين» (٢/ ٢٦٠).

(٢) «نفسه».

(٣) «نفسه».

سادسًا: الحياء خلق يحبه الله عز وجل، ويحب أهله

وتقدم في حديث يعلى بن أمية «**إن الله يحب الحياء والستر**»(١)، وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: قال لي أَشَجُّ بني عَصَر: قال لي رسول الله ﷺ: «**إن فيك لخلتين يحبهما الله عز وجل**»، قال: قلت: «وما هما؟» قال: «**الحلم والحياء**»، قال: قلت: «قديمًا كانتا فِيَّ أم حديثًا؟»، قال: «**قديمًا**»، قال: «الحمد لله الذي جبلني على خَلَّتين يحبهما الله عز وجل»(٢).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه-: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله -عز وجل- إذا أنعم على عبدٍ نعمة يحب أن يرى أثر النعمة عليه، ويكره البؤس والتباؤس، ويُبغض السائل المُلْحِفَ، ويحب الحييَّ العفيفَ المتعفف**»(٣).

(١) تقدم ص (٤٠).

(٢) تقدم تخريجه ص (١٣).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب»، وصححه الألباني بشواهده، كما في «الصحيحة» رقم (١٣٢٠).

سابعًا: الحياء شريعة جميع الأنبياء عليهم السلام

فقد بيَّن ﷺ أن الحياء لم يزل مُستحسَنًا في شرائع الأنبياء الأولين، وأنه لم يُرْفَع، ولم يُنْسَخْ في جملة ما نسخَ الله من شرائعهم، بل تداوله الناس بينهم، وتوارثوه عنهم، وتواصَوْا به قرنًا بعد قرن.

فعن أبي مسعود البدري -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ مِمَّا أدرك الناسُ من كلامِ النبوةِ الأولى: إذا لم تستحِ، فاصنع ما شئت**»(١).

إن الحياء يمنع من القبيح، وإذا اشتد حياء المرء صان عرضه، ودفن مساويه، ونشر محاسنه، ومن سقطت صبغة الحياء عن وجهه كما تسقط القشرة الخضراء عن العود الغض، فقد آذنت حياته الفاضلة بالضمور، وتهيأ الحُطام الباقي أن يكون حطبًا للنار، فيجترئ على المخالفات، ولا يبالي بالمحرمات.

إذا لم تَصُن عِرضًا ولم تخش خالقًا ... وتستحيِ مخلوقًا فما شئتَ فاصنعِ

وأنشد رجل من خزاعة:

إذا لم تخش عاقبةَ الليالي ... ولم تَسْتَحْيِ فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العُودُ ما بقي اللِّحاء

---

(١) رواه البخاري (١٠/ ٤٣٤)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢٠/ ٤٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ١٧٤).

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية -رحمه الله- وهو يعدد عقوبات الذنوب والمعاصي:

«ومن عقوباتها: ذهاب الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب، وهو أصل كل خير، وذهابه ذهابُ كُلِّ خيرٍ بأجمعه، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**الحياء خير كله**»، وقال: «**إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت**»، إلى أن قال رحمه الله:

والمقصود: أن الذنوب تضعف الحياء من العبد حتى ربما انسلخ منه بالكلية، حتى ربما إنه لا يتأثر بعلم الناس بسوء حاله، ولا باطلاعهم عليه، بل كثير منهم يخبر عن حاله وقبح ما يفعله، والحامل له على ذلك انسلاخه من الحياء، وإذا وصل العبد إلى هذه الحالة؛ لم يبق في صلاحه مطمع، وإذا رأى إبليس طلعة وجهه حَيَّاه وقال: «فُدِيتَ من لا يُفلح»، ومن لا حياء فيه ميت في الدنيا، شَقِيٌّ في الآخرة، وَبَيْنَ الذُّنُوبِ وَقِلَّةِ الحَيَاءِ وَعَدَمِ الغَيْرَةِ تَلَازُمٌ مِنَ الطَّرَفَيْنِ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَسْتَدْعِي الآخَرَ، ويَطْلُبُهُ حَثِيثًا، وَمَنِ اسْتَحْيَا مَنَ اللهِ عِنْدَ مَعْصِيَتِهِ اسْتَحْيَا اللهُ مَنْ عُقُوبَتِهِ يَومَ يَلْقَاهُ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ مَنْ مَعْصِيَتِهِ؛ لَمْ يَسْتَحِ اللهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ»(١) اهـ.

وقال أيضًا رحمه الله: «ومنها: أنه ينسلخ من القلب استقباحها، فتصير له عادة، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له، ولا كلامهم فيه، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التفكه وتمام اللذة، حتى يفتخر أحدهم بالمعصية، ويحدِّث بها من لم يكن يعلم أنه عملها، فيقول: «**يا فلان عملت كذا وكذا**»، وهذا الضرب من الناس لا يُعافَوْنَ ، وتُسَدُّ عليهم

(١) انظر: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، طبعة محمد صبيح-١٣٨٨هـ ص(٦٢).

طريق التوبة، وتُغلق عنهم أبوابها في الغالب، كما قال النبي ﷺ: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين**[1]**، وإن من الإجهار: أن يستر الله على العبد، ثم يصبح يفضح نفسه، ويقول: «يا فلان عملتُ يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيهتك نفسه، وقد بات يستره**[2] **ربه»**[3] اهـ.



(١) رواية الأكثر بالنصب، وفي رواية النسفي «إلا المجاهرون» بالرفع على أنه استثناء منقطع، و«إلا» بمعنى «لكنْ»، وعليه فالمعنى: لكن المجاهرون بالمعاصي لا يعافون، فالمجاهرون مبتدأ، والخبر محذوف، وانظر: «فتح الباري» (١٠/٤٨٦).

(٢) رواه -بنحوه- البخاري في «الأدب» (١٠/٤٨٦) رقم (٦٠٦٩)، ومسلم رقم (٢٩٩٠).

(٣) «الجواب الكافي» ص (٥٢).

فصل

حول معنى حديث: «إذا لم تستح؛ فاصنع ما شئت»

له تأويلان:

أحدهما: ظاهر، وهو المشهور: أي إذا لم تستح من العيب، ولم تخش العار مما تفعله؛ فافعل ما تحدثك به نفسك من أغراضها حسنًا كان أو قبيحًا، ولفظه أمر، ومعناه توبيخ وتهديد، وفيه إشعار بأن الذي يردع الإنسان عن مواقعة السوء هو الحياء، فإذا انخلع منه كان كالمأمور بارتكاب كل ضلالة، وتعاطي كل سيئة.

قال الحليمي: «المراد به الدلالة على أن عدم الحياء يدعو إلى الاسترسال الذي لا يؤمن أن يسوء عاقبته، وإن أعظم الموانع من القبائح عند العقلاء الذم، وهو فوق عقوبة البدن، فمن طاب نفسًا بالذم، ولم يخشه فلم يردعه عن قبيح ما هو رادع؛ فلا يلبث شيئًا حتى يرى نفسه مهتوك الستر، مثلوب العِرض، ذاهب ماء الوجه، لا وزن له ولا قدر، قد ألحقه الناس بالبهائم، وأدخلوه في عدادها، بل صار عندهم أسوأ حالاً منها، فنبه بهذا القول على ما في ترك الاستحياء من الضرر، لينتهي عنه، ويستشعر من الحياء ما يردع عن إتيان القبيح، فيؤمن مغبته»[١] اهـ.

والثاني: أن يُحمل الأمر على بابه، ويكون المعنى: إذا كنت في فعلك آمنًا أن تستحيي منه لجريك فيه على سَنن الصواب، وليس من

(١) «شعب الإيمان» للبيهقي (٦/ ١٤٣).

الأفعال التي يُستحيا منها؛ فاصنع منها ما شئت[١].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

«فالمعنى -على الأول- يكون تهديدًا كما في قوله تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠]، وعلى الثاني يكون إذنًا وإباحة، ولا يمكن حمل الحديث على المعنيين جميعًا لما بين الإباحة والتهديد من المنافاة، واعتبارُ أحد المعنيين يُوجب عدم اعتبار الآخر»[٢].

وذهب العيني في شرح الحديث إلى أنه يتضمن معنيين:

١- معنى الوعيد، أي افعل ما شئت تُجازَ به.

٢- أنه على طريق المبالغة في الذم، أي تركُكَ الحياءَ أعظم مما تفعله.

وقال رحمه الله تعالى: «والحديث للتنويه بشأن الحياء والحثِّ عليه»[٣].

وقال ابنُ سِيْدَهْ: معنى الحديث: «أن من لم يستح؛ صنع ما شاء»، على جهة الذم لترك الحياء، وليس يأمره بذلك، وإنما هو أمر بمعنى الخبر[٤].

---

(١) «النهاية» (٥/ ٤٧١).

(٢) «الجواب الكافي» ص (٦١-٦٢) بتصرف.

(٣) انظر: «فضل الله الصمد» (٢/ ٥٤).

(٤) «لسان العرب» (١٤/ ٢١٨).

ثامنًا: الحياء خلق الأنبياء عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**إن موسى كان رجلًا حَيِيًا سِتِّيرًا، لا يُرى شيءٌ من جِلده استحياءً، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: (ما تستر هذا التستر إلا من عيب أو أُدْرَةٍ)[(١)]، وإن الله أراد أن يبرئه، فخلا يومًا وحده ليغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فجمح[(٢)] موسى في إِثْرِه يقول: «ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر»، حتى انتهى إلى ملإٍ[(٣)] من بني إسرائيل، فرأوه عُرْيانًا أحسن ما خلق الله، وقالوا: «والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه، وطفق بالحجر ضربًا، فوالله إن بالحجر لنَدَبًا[(٤)] من أثر ضربه ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا**»[(٥)].



(١) الأُدرة: انتفاخ الخُصية، لتسرب سائل في غلافها.

(٢) جمح: أسرع.

(٣) الملأ: أشراف الناس إذا كانوا مجتمعين.

(٤) النَّدَبُ: أثر الجُرح إذا لم يرتفع عن الجلد، فشُبِّه به أثرُ الضرب في الحَجَر.

(٥) رواه -بنحوه- البخاري أرقام (٢٧٨، ٣٤٠٤، ٤٧٩٩)، ومسلم رقم(٣٣٩)، والترمذي رقم (٣٢١٩)، وانظر: «فتح الباري» (١/ ٣٨٥)، و«جامع الأصول» (٢/ ٣٢٤).

فصـل

حياء رسول الله ﷺ

قال أبو دهبل الجمحي يمدح رسول الله ﷺ:

نَزْرُ الكلام من الحياء تخاله سَقِمًا وليس بجسمه سَقَمُ(١)

ومن حياء رسول الله ﷺ ما رواه مالك بن صعصعة رضي الله عنه من تردد النبي ﷺ بين ربه وبين موسى، وسؤاله ربه التخفيف في الصلاة حتى جعلها خمسًا، فقال له موسى عليه السلام: «ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك»، قال: «**سألت ربي، حتى استحييت، ولكن أرضى وأُسَلِّم**»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أَشَدَّ حياءً من العذراء في خِدْرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه، عرفناه في وجهه»(٣).

والخِدْر: ناحية البيت يلقى عليه سِتر، فتكون فيه الجارية البكر، والعذراء- إذا كانت متربية في سِترها- تكون أشد حياءً لتسترها حتى عن النساء، بخلاف الداخلة الخارجة، والمراد بالحديث الحالة التي تعتريها عند دخول أحدٍ عليها فيه، لا التي تكون عليها حالة انفرادها واجتماعها بمثلها فيه.

والمقصود أنه ﷺ كان في حيائه الفطري أشد من هذه البكر، وكان

---

(١) انظر: ديوان «الحماسة» لأبي تمام (٢/ ٥٢٤).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٢٠٢) رقم (٣٨٨٧)، ومسلم رقم (١٦٤)، والترمذي رقم (٣٣٤٣)، والنسائي (١/ ٢١٧-٢١٨).

(٣) رواه البخاري (٦/ ٥٦٦)، ومسلم رقم (٢٣٢٠) -واللفظ له-، وغيرهما.

في الحياء المكتسَب في الذروة العليا منه، وكان إذا كره شيئًا، لا يتكلم به لحيائه ﷺ، بل يتغير وجهه، فنفهم نحن- الصحابة رضي الله عنهم- كراهته، فما أكرم خلقه ﷺ!

ويُروى عن عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنِ الرَّجُلِ شَيْءٌ لَمْ يَقُلْ: لِمَ قُلْتَ كَذَا وَكَذا؟ وَلَكِنَّهُ يَعُمُّ فَيَقُولُ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ..»[١].

وعنها - رضي الله عنها - قالت: سَأَلَتِ امرأةٌ النبيَّ ﷺ: كيف تغتسل من حيضتها؟ قالت: فذكرت أنه علَّمها كيف تغتسل، ثم تأخذ فِرْصَة[٢] من مَسْك فَتَطَهَّرُ بها، قالت: «كيف أتطهر بها؟»، **«قال: تطهري بها، سبحان الله!»**، واستتر بيده على وجهه، قالت عائشة: واجتذبتها إليَّ، وعرفت ما أراد النبي ﷺ، فقلت: «تتبعي بها أثر الدم»[٣].

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِزَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ بِخُبْزٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلْتُ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرُجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أدعو، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ، ما أجدُ أحدًا أَدْعُوهُ، فَقَالَ: **«فَارْفَعُوا طَعَامَكُمْ»**، وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حُجْرَةِ عَائِشَةَ فَقَالَ: **«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللهِ»**، فَقَالَتْ: «وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، كَيْفَ وَجَدْتَ أَهْلَكَ؟ بَارَكَ اللهُ لَكَ»، فَتَقَرَّى[٤] حُجَرَ نِسَائِهِ

---

(١) «مكارم الأخلاق» ص (٧٠).

(٢) فِرْصة مُمَسَّكة: قطعة من قطن أو صوف بها طيب.

(٣) رواه البخاري رقم (٣١٤) (١/ ٤١٤)، ومسلم (٣٣٢)، وانظر: «شرح النووي» (٤/ ١٣-١٥).

(٤) تقرى: تتبع الحجراتِ واحدة واحدة.

كُلِّهِنَّ، يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ فإذا ثلاثةٌ من رَهْطٍ في البيتِ يتحدثونَ، وكان النبيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مُنْطَلِقًا نَحْوَ حُجْرَةِ عَائِشَةَ، فَمَا أَدْرِي آخْبَرَتْهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أَسْكُفَّةِ[١] الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً أَرْخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأُنْزِلَتْ آيَةُ الْحِجَابِ»[٢].

ويُروى عن صَخْرِ بن الْعَيلَةِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الأَحْمَسِيِّ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ غَزَا ثَقِيفًا، فَلَمَّا أَنْ سَمِعَ ذَلِكَ صَخْرٌ رَكِبَ فِي خَيْلٍ يُمِدُّ رَسُولَ الله ﷺ فَوَجَدَ نَبِيَّ اللهِ قَدِ انصرَفَ وَلَمْ يَفْتَحْ، فَجَعَلَ صَخْرٌ يَوْمَهَا عَهْدَ اللهِ وَذِمَّتَهُ أَنْ لا يُفَارِقَ هَذَا الْقَصْرَ حَتَّى يَنْزِلُوا عَلَى حُكْم رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمْ يُفَارِقْهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْم رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ صَخْرٌ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ثَقِيفًا قَدْ نَزَلَتْ عَلَى حُكْمِكَ يَا رَسُولَ اللهِ، وَأَنَا مُقْبِلٌ إِلَيْهِمْ وَهُمْ فِي خَيْلٍ، فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالصَّلَاةِ جَامِعَةً، فَدَعَا لأَحْمَسَ عَشْرَ دَعَوَاتٍ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لأَحْمَسَ فِي خَيْلِهَا وَرِجَالِهَا»، وَأَتَاهُ الْقَوْمُ فَتَكَلَّمَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، إِنَّ صَخْرًا أَخَذَ عَمَّتِي وَدَخَلَت فِيمَا دَخَلَ فِيهِ الْمُسلِمُونَ، فَدَعَاهُمْ، فَقَالَ: **«يَا صَخْرُ إِنَّ الْقَومَ إِذَا أَسْلَمُوا أَحْرَزُوا دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَادْفَعْ إِلَى الْمُغِيرَةِ عَمَّتَهُ»**، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ، وَسَأَلَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «مَا لِبَنِي سُلَيْم قَدْ هَرَبُوا عَنِ الإِسْلَامِ، وَتَرَكُوا ذَلِكَ الْمَاءَ؟» فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ أَنْزِلْنِيهِ أَنَا وَقَوْمِي، قَالَ: **«نَعَمْ»**، فَأَنْزَلَهُ، وَأَسْلَمَ- يَعْنِي السُّلَمِيِّينَ- فَأَتَوْا صَخْرًا فَسَأَلُوهُ أَنْ يَدْفَعَ إِلَيْهِمُ الْمَاءَ، فَأَبَى، فَأَتَوْا النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ أَسْلَمْنَا وَأَتَيْنا

(١) أسكفة الباب: عتبته.

(٢) رواه البخاري رقم (٤٧٩٣) -واللفظ له-، ومسلم (١٤٢٨).

صَخْرًا لِيَدْفَعَ إِلَيْنَا مَاءَنَا فَأَبَى عَلَيْنَا، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: «**يَا صَخْرُ إِنَّ الْقَوْمَ إِذَا أَسْلَمُوا أَحْرَزُوا أَمْوَالَهُمْ وَدِمَاءَهُمْ، فَادْفَعْ إِلَى الْقَوْمِ مَاءَهُمْ**»، قَالَ: نَعَمْ، يَا نَبِيَّ اللهِ، فَرَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَغَيَّرُ عِنْدَ ذَلِكَ حُمْرَةً حَيَاءً مِنْ أَخْذِهِ الْجَارِيَةَ وَأَخْذِهِ الْمَاءَ»[1].

تاسعًا: الحياء خُلُقُ الإسلام

ولأجل عظيم أثره، وشرَفِ قَدْرِه، تَصَدَّر الحياءُ طليعةَ الخصائص الأخلاقية لهذه الملة الحنيفية، فقد روى أنس -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «**إنَّ لكل دين خُلُقًا، وخُلُقُ الإسلام الحياء**»[2].

يعني أن الغالب على أهل كل دين سجية سوى الحياء، والغالب على أهل ديننا الحياء، لأنه متمم لمكارم الأخلاق، وإنما بُعث المصطفى ﷺ لإتمامها، ولما كان الإسلام أشرف الأديان، أعطاه الله أسنى الأخلاق وأشرفها، وهو الحياء.

(١) رواه أبو داود (٣٠٦٧)، وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢/ ٣٥١) من طريق أبي داود، وقال: «في إسناده اختلاف»، وأشار إليه الحافظ في «التهذيب» (٤/ ٣٦٢)، وقال في «الإصابة» (٢/ ١٨٠): «أخرجه أبو داود والفريابي في مسنده، والبغوي من طريق أبي نعيم، وأحمد طرفًا منه»، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» رقم (٦٧٠).

(٢) رواه ابن ماجه رقم (٤١٨١)، (٤١٨٢)، وصححه الألباني بطريقيه في «الصحيحة» رقم (٩٤٠).

من حياء الصحابيات
رضي الله عنهن

تأسى الصحابة والصحابيات -رضي الله عنهم وعنهن أجمعين- بأسوتهم الحسنة رسول الله ﷺ، وتأدبوا بأدبه العالي، فتخلقوا بخلق الحياء، وهاك أمثلة من حيائهن وحيائهم:

فمن ذلك:

أن فاطمة -رضي الله عنها- أتت رسول الله ﷺ تسأله خادمًا، فقال: «**ما جاء بك يا بنية؟**»، فقالت: «جئت أسلم عليك»، واستحيت، حتى إذا كانت القابلة، أتته، فقالت مثل ذلك. . ، وفي رواية:

«أن رسول الله ﷺ جاءها وعليًا وقد أخذا مضاجعهما» الحديث وفيه: «فجلس عند رأسها، فأدخلت رأسها في اللفاع، حياءً من أبيها»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتى فاطمة بعبدٍ قد وهبه لها، قال: وعلَى فاطمة -رضي الله عنها- ثوب، إذا قنَّعَت به رأسها؛ لم يبلغ رجليها، وإذا غطت به رجليها؛ لم يبلغ رأسها، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال: «**إنه ليس عليك بأسٌ، إنما هو أبوكِ وغلامُك**»[(٢)].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: كنت أدخل البيت الذي دُفِن فيه رسول الله ﷺ وأبي رضي الله عنه واضعةً ثوبي، وأقول:

---

(١) رواه البخاري (١١/ ١٢١- فتح)، واللِّفاع: اللِّحاف.

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٠٦)، والبيهقي (٧/ ٩٥)، وصححه في «الإرواء» (٦/ ٢٠٦).

«إنما هو زوجي وأبي»، فلما دُفن عمر رضي الله عنه؛ والله ما دخلتهُ إلا مشدودةً عَلَيَّ ثيابي حياءً من عمر رضي الله عنه»(١).

وعنها -رضي الله عنها- قالت: جاءت فاطمة بنت عتبة رضي الله عنها تبايع رسول الله ﷺ، فأخذ عليها: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ﴾ الآية، فوضعت يدها على رأسها حياءً، فأعجبه ما رأى منها، فقالت عائشة رضي الله عنها: «أَقِرِّي أيتها المرأة، فوالله ما بايعنا إلا على هذا»، قالت: «فنعم إذن»، فبايعها بالآية(٢).

وعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- قَالَتْ: «مُرْنَ أَزْوَاجَكُنَّ أَنْ يَسْتَطِيبُوا بِالْمَاءِ فَإِنِي أَسْتَحْيِيهِمْ مِنْهُ، إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَفْعَلُهُ»(٣).

وعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَتْ: تَزَوَّجَنِي الزُّبَيْرُ وَمَا لَهُ فِي الأَرْضِ مِنْ مَالٍ ولا مملوكٍ وَلا شَيء غَيْرَ نَاضِحٍ(٤)، وَغَيْرَ فَرَسِهِ، فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَسْتَقِي الْمَاءَ وأَخْرِزُ غَرْبَهُ(٥) وَأَعْجِنُ، وَلَمْ أَكُنْ أُحْسِنُ أَخْبِزُ، وَكَانَ يَخْبِزُ جَارَاتٌ لِي مِنَ الأَنْصَارِ، وَكُنَّ نِسْوَةَ صِدْقٍ، وَكُنْتُ أَنْقُلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزُّبَيْرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ مِني عَلَى ثُلُثَيْ فَرْسَخٍ(٦)، فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى

(١) رواه بنحوه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٧)، وصححه على شرط الشيخين، وسكت عنه الذهبي.

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦/ ١٥١) وزاد الهيثمي عزوه إلى البزّار، وقال: «ورجاله رجال الصحيح» اهـ. من «المجمع» (٦/ ٣٧).

(٣) انظر تخريجه ص (٨٣).

(٤) الناضح: البعير الذي يُستقى عليه .

(٥) أخرز غَربه: أخيط قربة الماء.

(٦) ثلثي فَرسخ: حوالي ثلاثة كيلو مترات.

رَأْسِي، فَلَقِيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَدَعَانِي، ثُمَّ قَالَ: «إِخْ إِخْ»[١] لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أَسِيرَ مَعَ الرِّجَالِ، وَذَكَرْتُ الزُّبَيْرَ وَغَيْرَتَهُ، وَكَانَ أَغْيَرَ النَّاسِ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنِّي قَد اسْتَحْيَيْتُ فَمَضَى، فَجِئْتُ الزُّبَيْرَ فَقُلْتُ: لَقِيَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعَلَى رَأْسِي النَّوَى، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَنَاخَ لأَرْكَبَ، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ، وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ، فَقَالَ: وَاللهِ لَحَمْلُكِ النَّوَى كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ رُكُوبِك مَعَهُ، قالَت: حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبو بَكْرٍ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَادِمٍ تَكْفِينِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي[٢].



(١) إخ إخ: كلمة تقال لإناخة الجمل، يقال: أناخ الجمل: أبْرَكَه.

(٢) رواه البخاري (٩/ ٢٨١، ٢٨٢)، ومسلم رقم (٢١٨٢)، وغيرهما.

من حياء الصحابة رضي الله عنهم

وهذا الصديق -رضي الله عنه- يقول وهو يخطب في المسلمين: «أيها الناس استحيوا من الله، فوالله ما خرجت لحاجةٍ منذ بايعتُ رسول الله ﷺ أريد الغائط إلا وأنا مُقَنِّعٌ رأسي حياءً من الله»[١].

وهذا الفاروق عمر -رضي الله عنه- يقول: «من قلَّ حياؤه، قل ورعه، ومن قل ورعه، مات قلبه»، ويقول: «من استحيا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وُقي».

ومن الصحابة الأطهار -رضي الله عنهم- أجمعين مَن اختصَّه الله -عز وجل- بمزية خاصة في هذا الخلق الكريم، فهذا أمير البَرَرة، وقتيل الفجرة، ذو النورين عثمان بن عفان -رضي الله عنه- يقول فيه الصادق المصدوق ﷺ: «**ألا أستحيي من رجلٍ؛ والله إن الملائكة لتستحيي منه؟**»[٢].

---

(١) انظر: «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا (٢٠).

(٢) أصله في مسلم رقم (٢٤٠٢) عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي، كاشفًا عن فخذيه، أو ساقيه، فاستأذن أبو بكر، فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدث، ثم استأذن عمر فأذن له، وهو كذلك، فتحدث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ، وسوَّى ثيابه- قال محمد أحد الرواة: ولا أقول ذلك في يوم واحد- فدخل، فتحدث، فلما خرج قالت عائشة رضي الله عنها: «دخل أبو بكر فلم تهتش له، ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهتش له، ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلستَ وسوَّيتَ ثيابك» فقال: «**ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة**»، وفي رواية أنه قال ﷺ: «**إن عثمان رجل حيي، وإني خشيت -إن أذنت له على تلك الحال- أن لا يَبْلُغَ إليَّ في حاجته**».

ومعنى تهتش له: تقابله بطلاقة وجه، و«لم تباله» لم تكترث به، ولم تحتفل لدخوله.

وقال ﷺ: «**الحياء من الإيمان، وأحيى أمتي عثمان**»[١].

وعن الحسن -رحمه الله- وذكر عثمانَ رضي الله عنه وشدةَ حيائه-، قال: «إن كان ليكون في البيت، والباب عليه مغلق، فما يضع عنه الثوب ليُفيض عليه الماء، يمنعه الحياء أن يقيم صلبه».

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: «إني لأغتسل في البيت المظلم فما أقيم صلبي حتى آخذ ثوبي حياءً من ربي عز وجل».

وعن قتادة قال: «كان أبو موسى الأشعري رضي الله عنه إذا اغتسل في بيت مظلم تجاذب، وحنى ظهره، حتى يأخذ ثوبه، ولا ينتصب قائمًا».

وعن أنس قال: «كان أبو موسى إذا نام لبس تُبَّانًا[٢] مخافة أن تنكشف عورته»[٣].

ويُروى عن عبادة بن نسي قال: رأى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قومًا يقفون في الماء بغير أزر، فقال: «لأن أموتَ ثم أُنْشَرَ، ثم أموت ثم أنشر، ثم أموت ثم أنشر، أحبُّ إليَّ من أن أفعل مثل هذا».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لم يكن يدخل الحمامَ إلا وحده،

---

(١) رواه ابن عساكر من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٨٢٨)، وبيَّن أن شطره الأول متفق عليه من حديث ابن عمر، وللآخر شاهد من حديث أنس رضي الله عنه، بلفظ: «وأصدقهم- أي أمتي- حياءً عثمان» أخرجه الترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وقال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «الصحيحة»: «وهو كما قالا».

(٢) التُّبَّان: سراويلُ صغيرٌ يستر العورة المغلظة فقط.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٣٩٩).

وعليه ثوب صفيق، يقول: «إني أستحيي الله أن يراني في الحمام متجردًا».[١]

وقال عمرو بن العاص - رضي الله عنه- بعد إسلامه: إنه لم يكن شخص أبغضَ إليَّ منه - يعني النبي ﷺ- فلما أسلم لم يكن شخص أحبَّ إليه منه، ولا أَجَلَّ في عينه منه، قال: ولو سُئلتُ أن أصفه لكم لما أطقت لأني لم أكن أملأ عينيَّ منه إجلالاً له»[٢]، وهذا هو حياء الإجلال والهيبة.

وعن أبي واقدٍ الليثي -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نَفَرٍ، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فُرْجَةً في الحَلْقَةِ فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبًا، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «**ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه**[٣]**، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله**[٤] **منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله**[٥] **عنه**»[٦].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٣٥٥).

(٢) قطعة من حديث رواه مسلم رقم (١٢١) عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) أوى إلى الله: أي لجأ إلى الله «فآواه» أي جازاه بنظير فعله، بأن ضمه إلى رحمته ورضوانه، وفيه الثناء على من زاحم في طلب الخير.

(٤) فاستحيا: أي ترك المزاحمة كما فعل رفيقه حياءً من النبي ﷺ، وممن حضر، وفي لفظ الحاكم: «ومضى الثاني قليلاً، ثم جاء فجلس»، والمعنى أنه استحيا من الذهاب عن المجلس كما فعل رفيقه الثالث «فاستحيا الله منه» أي رحمه ولم يعاقبه.

(٥) فأعرض الله عنه: أي سخط عليه، وهو محمول على من ذهب معرضًا لا لعذر، هذا إن كان مسلمًا، ويحتمل أن يكون منافقًا، واطلع النبي ﷺ على أمره، كما يحتمل أن يكون قوله: «**فأعرض الله عنه**» إخبارًا أو دعاءً.

(٦) رواه البخاري (١/ ١٥٦ - فتح)، وغيره.

وعن محمد بن عباد بن جعفر أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقرأ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. [هود: ٥] قال: سألته عنها، فقال: أناس كانوا يستحيون أن يتخلوا[١] فيُفضوا إلى السماء، وأن يجامعوا نساءهم فيُفضوا إلى السماء، فنزل ذلك فيهم»[٢].

وفي رواية: «كان الرجل يجامع امرأته فيستحيي، أو يتخلى فيستحيي، فنزلت: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾[٣] الآية.

وفي رواية أبي أسامة: «كانوا لا يأتون النساء ولا الغائط إلا وقد تغشوا بثيابهم كراهة أن يُفضوا بفروجهم إلى السماء»[٤].

من حياء الصالحين

عن ابن أبي الهذيل قال: «أدركنا أقوامًا وإن أحدهم يستحيي من الله في سواد الليل، قال الثوري: يعني التكشف[٥].

وعن أبي المستضيء معاوية بن أوس قال: «رأيت هشام بن عمار إذا مشى أطرق إلى الأرض لا يرفع رأسه إلى السماء حياءً من الله عز وجل»[٦].

---

(١) يتخلوا: يقضوا الحاجة في الخلاء وهم عراة، كما في «الفتح» (٨/ ٣٥٠).

(٢) رواه البخاري (٨/ ٣٤٩ - فتح) رقم (٤٦٨١).

(٣) «السابق» رقم (٤٦٨٢).

(٤) «السابق» (٨/ ٣٥٠).

(٥) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ١٠٧).

(٦) « السابق» (١١/ ٤٣٠).

وقال الحسين بن محمد بن خُسْرو: «جاء أبو بكر بن ميمون فدقَّ الباب على الحميدي، وظن أنه أذن له، فدخل فوجده مكشوف الفخذ، فبكى الحميديُّ، وقال: والله لقد نظرتَ إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت!»[١].

وقال أبو جعفر محمد بن أبي حاتم: «قال لي بعض أصحابي: كنت عند محمد بن سلام، فدخل عليه محمد بن إسماعيل البخاري حين قدم من العراق، فأخبره بمحنة الناس وما صنع ابن حنبل وغيره من الأمور، فلما خرج من عنده قال محمد بن سلام لمن حضره: «أترون البكر أشد حياءً من هذا؟»[٢].

وقال أبو العباس الأزهري: سمعت خادمة محمد بن يحيى الذُّهْلي وهو على السرير يُغَسَّل تقول: «خدمته ثلاثين سنة، وكنت أضع له الماء، فما رأيت ساقه قط، وأنا مِلْكٌ له»[٣].

وقال السخاوي: «قال لي- أي الشيخ شمس الدين المقدسي-: «كنت إذا انكشف ساقي وأنا في خلوتي أبادر لستره مع الاستغفار»[٤].



(١) «السابق» (١٩/ ١٢٢).

(٢) «السابق» (١٢/ ٤١٨).

(٣) « السابق» (١٢/ ٢٧٩).

(٤) «المختار المصون من أخبار القرون» (١/ ٥٤٠).

فصل

الحياء بين الرجل والمرأة

تقول الدكتورة فاطمة نصيف -وفقها الله تعالى-: «إذا كان الحياء في الرجل جميلًا؛ فهو في المرأة أجمل، وإذا كان الحياء في الرجل فضيلة؛ فهو في المرأة أفضل، لأنه يزيدها زينة وبهاءً، ويجعلها محبوبة مرغوبة، فسِمة الخير في المرأة الحياء، وسمة الشر فيها القِحة، فالحياء حامي الفضيلة اليقظ، وحارسُها الأمين، الذي لا يسمح لكائن أن ينتهك حرمتها، أو يعتدي على ساحتها، وهو الذي يمنع الرذيلة أن تحل مكانًا تبوأته الفضيلة، بل إنه يباعد بينهما بكل ما أوتي من قوة إرادة، وصحة عزيمة»(١) اهـ.



(١) «حقوق المرأة وواجباتها في ضوء الكتاب والسنة» (١١٦).

فصل

الحجاب حارس الحياء

إن الوجه المصون بالحياء، كالجوهر المكنون في الوعاء، ولن تتزين امرأة بزينة هي أبهى ولا أجمل من الحياء، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: **«ما كان الحياء في شيء إلا زانه»**[١].

إن الحجاب والحياء توأمان لا يفترقان، وصنوان لا ينفصلان، ومن فقه الإمام البيهقي -رحمه الله- أنه عقد في كتابه« شعب الإيمان» بابًا كبيرًا هو «باب الحياء»، وجعل ضمن فصوله فصلاً في «حجاب النساء»[٢]، إشارة منه إلى علاقة التلازم بين الحجاب والحياء.

إن ميل المرأة إلى ستر جسدها ميل فطري سَوِيٌّ يتناسق مع حيائها من التكشف والابتذال، ولقد أبرز القرآن الكريم خلق الحياء في ابنتي الرجل الصالح، اللتين انحدرتا من بيت كريم، كله عفة، وطهارة، وحسن تربية، وآية ذلك ما قصَّه القرآن الكريم مما يدل على صيانتهما وحيائهما.

فعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- في تفسير قوله تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥]، قال: «ليست بسلفع[٣] من النساء خرَّاجة ولَّاجة، ولكن جاءت مستترة، قد وضعت كُمَّ دِرعها على وجهها استحياءً»[٤].

---

(١) تقدم تخريجه ص(٣٣) .

(٢) «شعب الإيمان» (٦/ ١٦٤ - ١٧٤).

(٣) امرأة سَلْفَع: سليطة جريئة على الرجال.

(٤) تقدم تخريجه ص(١٨).

وعن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: كنت أدخل البيت الذي دُفِن فيه رسول الله ﷺ وأبي رضي الله عنه واضعةً ثوبي، وأقول: «إنما هو زوجي وأبي»، فلما دُفن عُمر -رضي الله عنه-، والله ما دخلتهُ إلا مشدودةً عَلَيَّ ثيابي حياءً من عمر رضي الله عنه»[١]، فإذا كان هذا حياءها ممن هو في بطن الأرض فكيف بالحياء ممن على ظهرها؟!

وتأمل ما رُوي عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر: أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: «يا أسماء إني قد استقبحت ما يُصنع بالنساء[٢] أن يُطرح على المرأة الثوبُ فيصفها»، فقالت أسماء: «يا بنتَ رسول الله ﷺ! ألا أريكِ شيئًا رأيته بالحبشة؟»، فدعت بجرائد رطبة، فحنتها، ثم طرحت عليه ثوبًا، فقالت فاطمة: «ما أحسن هذا وأجمله! تُعرف به المرأة من الرجل، فإذا مِتُّ أنا فاغسليني أنتِ وعليٌّ، ولا يدخلْ عَلَيَّ أحد»، فلما تُوفِّيتْ غسلها علي وأسماء رضي الله عنهم[٣].

فتأمل كيف أن فاطمة عليها السلام بَضعة النبي ﷺ استقبحت أن يصفَ الثوبُ المرأةَ وهي ميتة، فلا شك أن وصفه إياها وهي حية أقبح وأقبح، ومنافاته للحياء أشد وأصرح.

وعن فاطمة عليها السلام أن رسول الله ﷺ «جاءها وعليًا، وقد أخذا مضاجعهما، فجلس عند رأسها، فأدخلت رأسها في اللفاع حياءً من أبيها»[٤]. الحديث.

---

(١) تقدم تخريجه ص(٥٦).

(٢) يعني بعد موتهن عند وضعهن على النعش.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/٤٣)، والبيهقي (٤/٣٤-٣٥)، وفي سنده جهالة.

(٤) تقدم تخريجه ص(٥٥).

والحادثة التالية -إن صحت- تُجَسِّد التلازم بين الحياء والحجاب:

فعن فرج بن فضالة عن عبد الخبير بن ثابت بن قيس بن شماس عن أبيه عن جده قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ يقال لها: أم خلّاد، وهي منتقبة، تسأل عن ابنها وهو مقتول، فقال لها بعض أصحاب النبي ﷺ: «جئتِ تسألين عن ابنِكِ وأنت منتقبة»؟! فقالت: «إن أُرزأ ابني فلن أرزأ حيائي»، فقال رسول الله ﷺ: «**ابنك له أجر شهيدين**» قالت: «ولم ذاك يا رسول الله؟»، قال: «**لأنه قتله أهل الكتاب**»[1].

ومما يذكر في كتب التاريخ والأدب أن النابغة أحد فحول الشعر الجاهلي قد مرت به امرأة النعمان بن المنذر في مجلس، فسقط نَصِيفُها «أي برقعها» الذي كانت تقنعت به، فسترت وجهها بذراعها، وانحنت على الأرض ترفع النصيف بيدها الأخرى، فطلب النعمان من النابغة أن يصف هذه الحادثة في قصيدة، فأنشأ القصيدة التي مطلعها:

أمن آل مية رائح أو مغتدي   عجلان ذا زاد وغير مزودِ

إلى أن قال:

سقط النصيف ولم تُرِدْ إسقاطه   فتناولته واتقتنا باليد

إن التجرد من خلق الحياء مدرجة الهلاك، والسقوط من دَرْكٍ إلى دَرْك إلى أن يصبح الإنسان صفيق الوجه، وينزع منه خلق الإسلام، فيجترئ على المخالفات، ولا يبالي بالمحرمات، وهناك تلازم بين ستر ما أوجب الله ستره، وبين التقوى، كلاهما لباس، هذا يستر عورات

---

(١) رواه أبو داود (٣/ ٥-٦)، رقم (٢٤٨٨)، وفي إسناده عبد الخبير بن ثابت منكر الحديث، والرُّزْء: المصيبة.

القلب ويزينه، وذاك يستر عورات الجسم ويزينه، وهما متلازمان:

فمن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح التكشف والحياء منه، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ الآية [الأعراف: ٢٦].

قَالَ وَهْبُ بْنُ مُنبِّهٍ: «الإِيمَانُ عُرْيَانٌ، وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى، وَزِينَتُهُ الْحَيَاءُ، وَمَالُهُ الْعِفَّةُ»[١].

إن مسارعة آدم وحواء إلى ستر عوراتهما بأوراق الشجر دليل على أن الحياء عنصر أصيل مركوز في فطرة الإنسان، فعليه أن يهتم به، ويحافظ عليه، ويصونه من أن يُثلم، ففي صيانته وسلامته صيانة وسلامة للفطرة من أن تمسخ أو تحرف، لأن في انحرافها مسخًا وتشويهًا لآدميته.

وقد أكثر الأدباء والشعراء من الحث على الحجاب الشرعي باعتباره من لوازم الحياء والعفة، وهاك شيئًا من أشعارهم في هذا المعنى:

فمن ذلك قول الكاتبة ملك حفني ناصف:

إن الفتاة حديقة وحياؤها ... كالماء موقوفًا عليه بقاؤها
بفروعها تجري الحياة فتكتسي ... حُلَلًا يروق الناظراتِ رَواؤها
إيمانها بالله أحسن حلية ... فيها فإمَّا ضاعَ ضاعَ بهاؤها
لا خير في حُسْن الفتاة وعلمها ... إن كان في غير الصلاح رضاؤها
فجمالها وقفٌ عليها إنما ... للناس منها دينُها ووفاؤها[٢]

(١) «مكارم الأخلاق» لابن أبي الدنيا ص (٢١).
(٢) «آثار باحثة البادية مَلَك حفني ناصف» ص(٣٠٩).

وقالت عائشة التيمورية:

بيد العفاف أصون عِزَّ حجابي　　وبعصمتي أعلو على أترابي
وبـفـكـرة وقَّـادة وقـريـحـة　　نـقـادة قـد كـمـلـت آدابـي
ما ضرَّني أدبي وحُسْنُ تعلمي　　إلا بـكـونـي زهـرةَ الألـبـابِ
ما عاقني خجلي عن العليا ولا　　سدلُ الخمار بلمتي ونقابي(١)

وقال الشاعر:

لِيسَ الحُليُّ التي بالمال نملكُها　　أغلى الحُليِّ حِلَى الأخلاق والأدبِ
ويا لقُبْحِ فتاةٍ لا حياءَ لها　　وإن تحلَّتْ بغالي الماسِ والذهبِ
ما أجمل العين تُغضي وهي فاتنة　　لله غضَّت بلا كبتٍ ولا رَهَبِ
ما أجملَ الوجه إذ يحمر من خجلٍ　　وإن دعا الحقُّ لم يخجل ولمَ يهَبِ
تذكري الوردة البيضاء يانعة　　يفوح منها الشذى يُشْتَمُّ عن كَثَبِ
حتى إذا ابتُذِلت ماتت نضارتُها　　وألقيت كالقذى ما فيه من رَغَبِ

آخر:

ليس للبنت في السعادة حظ　　إن تنـاءى الحيـاءُ عنـهـا وولَّى
فاجعلي شيمة الحياء خمارًا　　فـهـو بـالـغـادة الـكـريـمـة أولـى

آخر:

صوني حياءكِ صوني العِرْض لا تهني　　وصابري واصبري لله واحتسبي
إن الحياء من الإيمان فاتخِذي　　منه حُليَّكِ يا أختاه واحتجبي

---

(١) «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» ص (٣٠٩).

آخر:

لا وازع يزع الفتاة كمثل ما ... تـزع الـفـتـاةَ صـيـانـةٌ وحـيـاءُ
وإذا الـحـيـاء تـهـتـكـت أسـتـاره ... فعلى العفاف من الفتاة عفاءُ[1]

وقال الشاعر الأزدي:

نص الكتاب على الحجاب ولم يبح ... لـلـمـسـلـمـيـن تـبـرج الـعـذراءِ
ماذا يَريبك من حجاب ساترٍ ... جِيدَ المهاة[2] وطلعة الذلفاء[3]
مـاذا يَـريـبـك مـن إزارٍ مـانـعٍ ... وزر الـفـؤاد وضـلـة الأهـواء
ما في الحجاب سوى الحياء فهل من ... التهذيب أن يهتكن ستر حياء
أسفينةَ الوطنِ العزيز تبصري ... بالقعر لا يغررْكِ سطحُ الماء[4]

❁ ❁ ❁

(١) «أستاذ المرأة» ص(٢٥ - ٢٦).

(٢) الجِيد: العنق أو مُقدَّمه، المهاة: الشمس، والبقرة الوحشية.

(٣) الذلَف: صغر الأنف.

(٤) «الأدب العصري» (٢/٥٦).

فصـل
أقسام الحياء باعتبار مَن يُستحيا منه

أولًا: الاستحياء من النفس

الذين يستحيي منهم الإنسان: الله عز وجل، ثم الملائكة، والناس، ونفسه، فمن استحيى من الناس، ولم يستحي من نفسه؛ فنفسه أَخَسُّ عنده من غيره، لأنه يراها أحقر من أن يستحيي منها، ومن استحيى منها، ولم يستحي من الله؛ فلعدم معرفته بالله عز وجل، فمِن ثَمَّ قال رسول الله ﷺ للرجل الذي استوصاه: «**أوصيك أن تستحييَ من الله كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك**»(١).

فحق الإنسان إذا هَمَّ بقبيح أن يتصور أحدًا من نفسه كأنه يراه، فالإنسان يستحيي ممن يكبر في نفسه، ولذلك لا يستحيي من الحيوان(٢)

---

(١) رواه من حديث سعيد بن يزيد -رضي الله عنه- الإمامُ أحمد في «الزهد» ص (٤٦)، والخرائطي في «مكارم الأخلاق» ص (٥٠)، وغيرهما، وقال الألباني: «إسناده جيد، رجاله كلهم ثقات، على خلاف في صحبة سعيد بن يزيد، وهو ابن الأزور، وقد أثبتها له أبو الخير هذا- يعني مرثدًا الراوي عن سعيد- وهو أدرى بها من غيره» اهـ. من «الصحيحة» رقم (٧٤١).

(٢) ومن الطرائف في هذا المعنى ما رواه الخطيب في «الجامع» عن علان الوراق، قال: رأيتُ العتابي يأكل خبزًا على الطريق، بباب الشام، فقلت له: «ويحك! أما تستحيي؟!»، فقال لي: «أرأيت لو كُنَّا في دارٍ فيها بقر، أكنت تحتشم أن تأكلَ، وهي تراك؟» فقلت: «لا»، قال: «فاصبر! حتى أُعْلِمَك أنهم بقر»، ثم قام، فوعظ، وقصَّ، ودعا، حتى كثر الزحام عليه، ثم قال لهم: رُوِيَ لنا من غير وجهٍ: «أنَّ مَنْ بلغ لسانُهُ أرنبةَ أنفِهِ لم يدخل النار»، قال: فما بقي منهم أحد إلا أخرج لسانَه، يُومئ به نحو=

ولا من الأطفال، ولا من الذين لا يميزون، ويستحيي من العالِم أكثر مما يستحيي من الجاهل، ومن الجماعة أكثر مما يستحيي من الواحد، وينبغي على الإنسان إذا كبرت عنده نفسه، أن يكون استحياؤه منها أكثر من استحيائه من غيره، ومن ثَمَّ قال بعض السلف: «من عمل في السِّرِّ عملاً يَسْتَحْيي منه في العلانية، فليس لنفسِهِ عنده قدرٌ».

وسئل بعضهم عن المروءة، فقال: « هي أن لا تفعل في السر أمرًا، وأنت تستحيي أن تفعله جهرًا».

إن حياء المرء من نفسه هو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحييًا من نفسه، حتى كأن له نفسين: يستحيي بإحداهما من الأخرى، وهذا من أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحيى من نفسه فهو بأن يستحيي من غيره أجدر.

وقال الحسين بن مُطير:

ونفسَك أكرِمْ عن أمور كثيرة فمالك نفس بعدها تستعيرها
ولا تقرب المرعى الحرام فإنما حلاوتُه تفني ويبقى مريرُها

= أرنبته، ويَقْدُرُه: هل يبلغها؟ فلما تفرقوا ، قال لي العتَّابي: «ألم أخبرك أنهم بقر؟» اهـ. (٢/١٦٧- ١٦٨).

ثانيًا: الاستحياء من الملائكة

الحياء من أخلاق الملائكة، كما يُبين عنه حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «**ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟**»[١]، وعنها رضي الله عنها أن جبريل عليه السلام امتنع من دخول بيت النبي ﷺ استحياء منها، فناداه بصوت خَفِيٍّ، وأجابه النبي ﷺ بصوت خفي، ثم قال ﷺ: «**ولم يكن ليدخل عليك، وقد وضعتِ ثيابَكِ، وظننتُ أن قد رَقَدتِ، فكرِهتُ أن أوقظك**»[٢] **الحديث**.

قال الإمام المحقق ابن قيم الجوزية رحمه الله: « قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: «إن معكم من لا يفارقكم، فاستحيوا منهم، وأكرموهم»، ولا ألأم ممن لا يستحيي من الكريم العظيم القدر، ولا يُجِلُّه، ولا يوقره، وقد نبه سبحانه على هذا المعنى بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام، وأكرموهم، وأجِلُّوهم أن يَرَوْا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين؟ والله المستعان»[٣] اهـ.

وعن عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ قال: «ما على أحدكم إذا خلا أن يقول: (اكتب، رحمك الله)، فيُملي خيرًا؟».

---

(١) تقدم تخريجه (٥٨).

(٢) أصل الحديث أخرجه مسلم (٣/ ١٤)، والنسائي (١/ ٢٨٦)، والإمام أحمد (٦/ ٢٢١).

(٣) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» ص (١٢٧- ١٢٨).

ثالثًا: الاستحياء من الناس

الحياء من الناس خلق حسن جميل، يمنع من المعايب، ويشيع الخير والعفاف، ويُعوِّد النفسَ ركوبَ الخصال المحمودة.

قال ابن حبان: «الواجب على العاقل أن يعوِّد نفسه لزوم الحياء من الناس، فإن من أعظم بركته تعويدَ النفس ركوبَ الخصال المحمودة، ومجانبتها الخلال المذمومة»[١].

وقد نصَّب النبي ﷺ هذا الحياء حَكَمًا على أفعال المرء، وجعله ضابطًا وميزانًا، فعن النواس بن سمعان رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال ﷺ: **«البِرُّ: حسن الخُلُق، والإثم: ما حاك في صدرك،[٢] وكرِهتَ أن يطَّلِعَ عليه الناس»**[٣].

وعن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: **«مَا كَرِهْتَ أن يراه الناسُ فلا تفعله إذا خَلَوْتَ»**[٤].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: « لا خير فيمن لا يستحيي من الناسُ».

---

(١) «روضة العقلاء» ص (٥٨).

(٢) أي تحرك فيه وتردد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل في القلب منه الشك، وخوفُ كونه ذنبًا.

(٣) أخرجه مسلم رقم (٢٥٥٣) في البر والصلة، والترمذي رقم (٢٣٩٠) في الزهد، والإمام أحمد (٤/ ١٨٢).

(٤) رواه ابن حبان في «روضة العقلاء» ص (٢٦)، والضياء في «المختارة» (١/ ٤٤٩)، وغيرهما، وحسنَّه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٠٥٥).

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه- قال: «من لا يستحيي من الناس لا يستحيي من الله».

وقال بعضهم: «أحْيِ حياءك بمجالسة من يُسْتَحْيَى منه».

وقال مجاهد: «لو أن المسلم لم يُصِبْ من أخيه إلا أن حياءه منه يمنعه من المعاصي؛ لكفاه».

وقد تقدم أن رجلاً قال للنبي ﷺ: أوصني، فقال: «**أوصيك أن تستحييَ من الله تعالى كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك**»(١)، فلا أحد من الفسقة إلا وهو يستحيي من عمل القبيح عن أعين أهل الصلاح وذوى الهيئات والفضل أن يراه وهو فاعله، والله مطلع على جميع أفعال خلقه، فالعبد إذا استحيى من ربه استحياءه من رجل صالح من قومه؛ تجنب جميع المعاصي، فيالها من وصية ما أبلغها، وموعظة ما أجمعها!

وقال بعض السلف لابنه:

«إذا دعتك نفسك إلى ذنبٍ فارمِ ببصرك إلى السماء، واستحيِ ممن فيها، فإن لم تفعل؛ فارمِ ببصرك إلَى الأرض، واستحيِ ممن فيها، فإن كنت لا ممن في السماءَ تخاف، ولا ممن في الأرض تستحيي، فاعدد نفسك في عداد البهائم».

وعن ابن سيرين قال: خرج زيد بن ثابت يريد الجمعة، فاستقبل الناسَ راجعين، فدخل دارًا، فقيل له، فقال: «إنه من لا يستحيي من الناس لا يستحيي من الله»(٢).

---

(١) تقدم تخريجه ص(٧٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢/٤٣٩)، وانظر: «أدب الدنيا والدين» ص (٢٤٩).

وكان الشيخ محمد بن أحمد الغمري شديد الحياء، لا ينام بحضرة أحدٍ أبدًا، ويقول: «أخاف أن يخرج مني ريح وأنا نائم»(١).

وعن جعفر الصائغ قال: كان في جيران أبي عبد الله أحمد بن محمد ابن حنبل رجلٌ ممَّن يمارس المعاصي والقاذورات، فجاء يومًا إلى مجلس أحمد يسلم عليه، فكأنَّ أحمد لم يردَّ عليه ردًّا تامًّا، وانقبض منه، فقال له: «يا أبا عبد الله، لِمَ تنقبض مني؟! فإني قد انتقلتُ عمَا كنت تعهدني، برؤيا رأيتُها»، قال: وأيَّ شيءٍ رأيتَ؟ قال: رأيتُ النبي ﷺ في النوم كأنَّه على علوٍّ من الأرض وناسٌ كثير أسفل جلوسٌ، قال: فيقوم رجل منهم إليه، فيقول: «ادعُ لي»، فيدعو له، حتى لم يبق مِن القوم غيري، قال: فأردتُ أن أقوم، فاستحييتُ من قبيح ما كنتُ عليه، قال لي: «يا فلان! لِمَ لا تقومُ إليَّ فتسألني أن أدعَو لك؟» قال: قلتُ: يا رسول الله، يقطعني الحياءُ لقبيح ما أنا عليه»، فقال: «إن كان يقطعك الحياء؛ فقم فسلني أدعُ لك؛ فإنك لا تسب أحدًا من أصحابي»، قال: «فقمتُ، فدعا لي، فانتبهتُ وقد بَغَّضَ اللهُ إليَّ ما كنتُ عليه»، قال: فقال لنا أبو عبد الله: «يا جعفر، يا فلان، حدِّثوا بهذا واحفظوه؛ فإنه ينفع»(٢).



(١) «المختار المصون من أعلام القرون» (٢/٧٥٨).

(٢) «كتاب التوابين» ص (٢٦٤ - ٢٦٥).

فصل

مسائل من «فقه الحياء»

الأولى: هل يؤجر مَن فعل المعروفَ حياءً؟

سئل الحسن عن الرجل يسأله آخرُ حاجةً، وهو يبغضه، فيعطيه حياءً: «هل له فيه أجر؟»، فقال: «إن ذلك لمن المعروف، وإن في المعروف لأجرًا».

وسئل ابن سيرين: عن الرجل يتبع الجنازة لا يتبعها حِسْبةً، يتبعها حياءً من أهلها؛ أله في ذلك أجر؟ فقال: «أجرٌ واحد؟! بل أجران: أجر الصلاة على أخيه، وأجرٌ لصلته الحَيَّ».

وقد يقال: إن هذه الأعمال خير ومعروف في ذاتها؛ وإن لم ينو بها القُربة، لما يحصل به من النفع المتعدي، ولقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وأما الثواب عليها من الله فمختص بمن فعلها ابتغاء مرضاة الله تعالى، لقوله عز وجل بعدها مباشرة: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]، ولقوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئٍ ما نوى**» الحديث، متفق عليه.

الثانية: أخذ المال بالحياء كأخذه بالسيف:

لا يُفهم من الحض على الحياء- وإن أضرَّ بحق المستحيي- أن من استغل هذا الحياء عارٍ عن الإثم والحَيْف: فقد قال العلماء رحمهم الله تعالى: «أخذ المال بالحياء كأخذه بالسيف» مستنبطين ذلك من قوله ﷺ: «**لا يحل مال امرئٍ**

مسلم إلا بطيب نفسٍ منه»[١]، وعن أبي حميد رضي الله عنه قال: «لا يحل للرجل أن يأخذ عصا أخيه بغير طيب نفسه، وذلك لشدة ما حرَّم رسول الله ﷺ من مال المسلم على المسلم»[٢].

وقال الإمام ابن مفلح الحنبلي رحمه الله تعالى:

«فصل في سؤال الأخ والوالد والولد والأخذ ممن أعطى حياءً»

قال حرب لأحمد: الرجل يكون له الأخ من أبيه وأمه، ويرى عنده الشيء يعجبه، الدابة ونحو ذلك، فيقول: «هَبْ هذا لي»، وقد كان ذلك يجري بينهما، ولعل المسئول يحب أن يسأله أخوه ذلك؟ قال: «أكره المسألة كلها»، ولم يرخص فيه إلا أنه بين الأب والولد أيسر، وذلك أن فاطمة قد أتت النبي ﷺ، وسألته، ونقل عنه يعقوب وإبراهيم بن هانئ والفضل نحو ذلك.

ومن المسألة المحرمة وهي واقعة كثيرًا سؤالُ ربِّ الدَّيْن وضعَ شيء من دينه، نص عليه، قال في رواية بكر بن محمد عن أبيه: لا تعجبني هذه المسألة، قال ﷺ: «**لا تحل المسألة إلا لثلاثة**»[٣] قال ابن الجوزي: «وإن أخذ ممن يعلم أنه إنما أعطاه حياءً؛ لم يجز له الأخذ، ويجب رده إلى صاحبه»، ولم أجد أحدًا صرح بهذا غيره، وهو قول حسن، لأن المقاصد عندنا في العقود معتبرة، وعموم كلام غيره يخالفه، والله أعلم»[٤]اهـ.

(١) رواه جماعة من الصحابة -رضي الله عنهم- وصححه الألباني في «الإرواء» (٥/ ٢٧٩).

(٢) انظر: « الارواء» (٥/ ٢٧٩).

(٣) انظر أصل الحديث في «صحيح ابن خزيمة» (٤/ ٦٥) رقم (٢٣٦٠).

(٤) «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (٣/ ٢٨٦).

وجاء في «الموسوعة الفقهية»:

«صرح الشافعية والحنابلة أنه: إذا أخذ مال غيره بالحياء، كأن يسأل غيره مالًا في ملإٍ؛ فدفعه إليه بباعث الحياء فقط، أو أُهدِيَ إليه حياءً هدية يعلم المهدَى له أن المُهدي أهدى إليه حياءً؛ لم يملكه، ولا يحل له التصرف فيه، وإن لم يحصل طلبٌ من الآخذ، فالمدار مجرد العلم بأن صاحب المال دفعه إليه حياءً، ولا مروءة، ولا لرغبة في خير.

ومن هذا: لو جلس عند قوم يأكلون طعامًا، وسألوه أن يأكل معهم، وعلم أن ذلك لمجرد حيائهم؛ لا يجوز له أكله من طعامهم، كما يحرم على الضيف أن يقيم في بيت مضيفه مدة تزيد على مدة الضيافة الشرعية وهي ثلاثة أيام، فيطعمه حياءً[١].

فللمأخوذ حياءً حكم المغصوب، وعلى الآخذ رده، أو التعويض عنه، ويجب أن يكون التعويض بقيمة ما أخذ أو أكل من زادهم»[٢] اهـ.

الثالثة: يجري في الحياء الأحكام التكليفية:

فإن كان المستحيى منه محرمًا؛ فالحياء منه واجب، وإن كان المستحيى منه مكروهًا؛ فهو مندوب، وإن كان المستحيى منه واجبًا؛ فالحياء منه حرام، وإن كان من مباح؛ فهو عرفي أو جائز[٣].

---

(١) انظر: «الموسوعة الفقهية» (٢٨/٣١٦-٣١٨)، و«غذاء الألباب» (٢/١٣٥).

(٢) «الموسوعة الفقهية» (١٨/٢٦٣)، وانظر: «نهاية المحتاج» (٥/١٤٦)، و«حاشية الجمل» (٣/٤٦٩)، و«مطالب أولي النهى» (٤/٣٨٠- ٣٨١).

(٣) انظر: «عمدة القاري» (١/١٥٢)، «فتح الباري» (١/٧٤)، «الموسوعة الفقهية» (١٨/٢٦٢).

تنبيــه:

سئل بعضهم: هل كون الحياء من الإيمان مقيد أو مطلق؟ فقال: مقيَّد بترك الحياء في المذموم شرعًا، وإلا فعدمه مطلوب في النصح والأمر والنهي الشرعي، فتركه في هذه الأشياء من النعوت الإلهية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وأنشدوا في مدح ترك الحياء في المشروع:

تـرك الـحـيـاء تحـقـقٌ وتخـلُّقٌ   جاءت به الآياتُ في القرآنِ
فإذا فهمتَ الأمر يا هذا فكن   مثلَ اللسانِ[1] بقُبَّةِ الميزانِ[2]



(١) لسان الميزان: عودٌ من المعدِن يُثبَّت عموديًا على أوسط العاتق، وتتحرك معه، ويُستدل منه على توازن الكفتين، والمقصود وضع كلٍّ من الحياء المأمور به، والحياء المأمور بتركه في موضعه.

(٢) انظر: «فيض القدير» (٣/ ٤٢٧-٤٢٨).

ليس من الحياء

اعلم أن الحياء المحمود الذي هو خُلُق الإسلام، وقرين الإيمان، هو الحياء الذي يبعث على ترك القبيح، ويمنع من التقصير في حق ذي الحق، ويُعرف هذا الحياء بثمرته، فإذا أتى بخير فهو المحمود، ولذلك لما وصف رجل الحياء عند الأحنف؛ قال: «إن الحياء ليتم لمقدار من المقادير، فما زاد عن ذلك فَسَمِّه بما أحببت».

فالذي يهم بفاحشة فيمنعه حياؤه من اجتراحها، أو يعتدي عليه سفيه فيمنعه حياؤه من مقابلة السيئة بالسيئة، أو يسأله سائل فيمنعه حياؤه من حرمانه، أو يضمه مجلس فيمسك الحياء بلسانه عن الكلام، والخوض فيما لا يعنيه، فالذي يكون للحياء في نفسه هذه الآثار الحسنة، فهو ذو خلق محمود، فقد ورد أن النبي ﷺ مرَّ على رجل يعظ أخاه في الحياء، فقال له ﷺ: «**دعه، فإن الحياء من الإيمان**»(١) وقال عليه الصلاة والسلام: «**الحياء لا يأتي إلا بخير**»(٢).

أما إذا أتى الحياء بشر؛ فهذا ليس بالحياء الشرعي المأمور به، وإنما هو عجز وخَوَر، وضعف ومهانة، وهو من خداع الشيطان وتلبيسه كالحياء الذي يترتب عليه كتمانُ حق، أو انتهاك حرمة، وتسمية مثل هذا حياءً من إطلاق بعض أهل العرف، أطلقوه مجازًا لمشابهته الصورية للحياء الشرعي(٣).

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ

(١) تقدم تخريجه ص (٣٢).

(٢) تقدم تخريجه ص (٢٨).

(٣) انظر: «عمدة القاري» (١/ ١٥٢).

﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وقال رسول الله ﷺ: «**خير الهدي هدي محمد ﷺ**»(١).

وقال سفيان بن عيينة -رحمه الله-: «إن رسول الله ﷺ هو الميزان الأكبر، وعليه تُعْرضُ الأشياء، على خُلُقه، وسيرته، وهديه، فما وافقها فهو الحق، وما خالفها فهو الباطل».

وقد كان ﷺ أشد حياءً من العذراء في خِدْرِها، قال القرطبي- رحمه الله تعالى-: «وقد كان المصطفى ﷺ يأخذ نفسه بالحياء، ويأمر به، ويحث عليه، ومع ذلك فلا يمنعه الحياء من حق يقوله، أو أمر ديني يفعله تمسكًا بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، وهذا هو نهاية الحياء، وكماله، وحسنه، واعتداله، فإن من فَرَطَ عليه الحياء حتى منعه من الحق؛ فقد ترك الحياء من الخالق، واستحيى من الخلق، ومن كان هكذا حُرِمَ منافع الحياء، واتصف بالنفاق والرياء، والحياء من الله هو الأصل والأساس، فإن الله أحق أن يُستحيى منه، فليُحفظ هذا الأصل، فإنه نافع»(٢).

إن الإسلام بوصفه دين الله الحق دين حياتيٌّ واقعي شامل، ينظم كل شؤون الحياة على كافة مستوياتها، فما من فعل أو ترك إلا ولله -عز وجل- فيه حكم، ومن ثم يصبح المسلم - لا محالة- في حاجة ماسة إلى التعرف على حكم الله -سبحانه- في هذه الأمور، وهذا الذي فعله وبيَّنه رسول الله ﷺ وهو القائل: «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خيرِ ما يعلمه لهم، وينذرهم شرَّ ما يعلمه لهم**»(٣) الحديث.

---

(١) جزء من خطبة الحاجة، رواه مسلم رقم (٨٦٧)، كتاب الجمعة.

(٢) نقله عنه المناوي -رحمه الله- في «فيض القدير» (١/ ٤٨٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٤) - واللفظ له- والنسائي (٢/ ١٨٥)، وابن ماجه (٣٩٥٦)، والإمام أحمد (٢/ ١٩١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

ورُوي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «لقد تركَنا رسول الله ﷺ وما يتقلب في السماء طائر إلا ذكَّرنا منه علمًا»(١).

وقد لاحظ بعض الناس ذلك ؛ حتى قيل لسلمان - رضي الله عنه- : «لقد علَّمكم نبيكم كل شيء حتى الخِراءَة!» قال: «أجل، لقد نهانا رسول الله ﷺ أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، وأن لا نستنجي باليمين، وأن لا يستنجي أحدنا بأقل من ثلاثة أحجار، أو يستنجي برجيع، أو عظم»(٢).

من أجل ذلك أسقط الإسلام اعتبار الحياء في بعض المواضع مع تعظيمه هذا الخلق الكريم، لما يترتب على الاستحياء فيها من الشر، أو تضييع الحقوق، أو انتهاك حرمات الله -عز وجل-.

ونظرة إلى مسلك الصحابة -رضي الله عنهم- في ذلك تبين لنا أنهم مع شدة حيائهم لم يخجلوا من إبلاغ الأحكام الشرعية على وجهها تعليمًا للناس ما لا بد لهم منه، وإنما استفادوا ذلك من هدي رسول الله ﷺ الذي قال لهم يومًا: **«إنما أنا لكم مثل الوالد لولده» وفي لفظ: «بمنزلة الوالد»، «أُعَلِّمكم: إذا أتيتم الغائط، فلا تستقبلوا القبلة، ولا تستدبروها»**(٣) الحديث.

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: «جاء

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ١٥٣، ١٦٢) عن أشياخ من التيم عنه رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم رقم (٢٦٢) كتاب الطهارة: باب الاستطابة، وأبو داود رقم (٧) في الطهارة.

(٣) رواه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أبو داود رقم (٨)، وابن ماجه (١/ ١٣١)، والدارمي (١/ ١٧٢)، وحسنه الألباني في «المشكاة» (١/ ١١٢).

أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنا نكون بالبادية فتخرج من أحدنا الرُّوَيْحَةُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل لا يستحيي من الحق، إذا فعل أحدكم فليتوضأ، ولا تأتوا النساء في أعجازهنَّ**»، **وقال مرة**: «**في أدبارهن**»(١).

وكانت أمهات المؤمنين- رضي الله عنهن- من نفس المنطلق؛ يلين بأنفسهن هذا التأديب أحيانًا:

فعَنْ أَبِي مُوسَى- رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: اخْتَلَفَ فِي الْغُسْلِ- إِذَا قَعَدَ بَيْنَ شُعَبِهَا وَلَمْ يُنْزِلْ- رَهْطٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّونَ: «لَا يَجِبُ الْغُسْلُ إِلَّا مِنَ الدَّفْقِ أَوْ مِنَ الْمَاءِ»، وَقَالَ الْمُهَاجِرُونَ: «بَلْ إِذَا خَالَطَ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ»، قَالَ: قَالَ أَبُو مُوسَى: «فَأَنَا أَشْفِيكُمْ مِنْ ذَلِكَ»، فَقُمْتُ فَاسْتَأْذَنْتُ عَلَى عَائِشَةَ، فَأُذِنَ لِي، فَقُلْتُ لَهَا: «يَا أُمَّاهُ (أَوْ يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكِ عَنْ شَيْءٍ، وَإِنِّي أَسْتَحْيِيكِ»، فَقَالَتْ: «لَا تَسْتَحْيِي أَنْ تَسْأَلَنِي عَمَّا كُنْتَ سَائِلًا عَنْهُ أُمَّكَ الَّتِي وَلَدَتْكَ، فَإِنَّمَا أَنَا أُمُّكَ»، قُلْتُ: «مَا يُوجِبُ الْغُسْلَ؟»، قَالَتْ: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا جَلَسَ بَيْنَ شُعَبِهَا الأَرْبَعِ، وَمَسَّ الْخِتَانُ الْخِتَانَ؛ فَقَدْ وَجَبَ الْغُسْلُ**»(٢).

وعنها -رضي الله عنها- قالت: «مُرْنَ أَزْوَاجَكُنَّ أَنْ يَسْتَطِيبُوا بِالْمَاءِ فَإِنِّي أَسْتَحْيِيهِمْ مِنْهُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَفْعَلُهُ»(٣).

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢/ ٦٥٣) رقم (٦٥٥)، وقال العلامة أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

(٢) رواه الإمام أحمد (٦/ ٩٧)، ومسلم رقم (٣٤٩) في الحيض، والترمذي رقما (١٠٨)، (١٠٩) في الطهارة.

(٣) رواه الإمام أحمد (٦/ ٩٥)، والترمذي (١٩)، وقال: «حسن صحيح»،=

وعنها- رَضِيَ اللهُ عَنهَا- أَنَّهَا ضَافَتْ ضَيْفًا، فَأَمَرَتْ بِمِلْحَفَةٍ صَفْرَاءَ فَنَامَ فِيهَا، فَاحْتَلَمَ، فَاسْتَحْيَا أَنْ يُرْسِلَ بِهَا وَبِهَا أَثَرُ الاحْتِلَامِ فَغَمَسَهَا فِي الْمَاءِ، ثُمَّ أَرْسَلَ بِهَا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: «لِمَ أَفْسَدَ عَلَيْنَا ثَوْبَنَا؟ إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَفْرُكَهُ بِأَصَابِعِهِ، وَرُبَّمَا فَرَكْتُهُ مِنْ ثَوْبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَصَابِعِي»(١).



= والنسائي(٤٦)، وهو في «صحيح النسائي» للألباني رقم (٤٥).

(١) رواه الإمام أحمد (٦/ ٤٢)، والترمذي رقم (١١٦)، وقال: «حسن صحيح»، وروى مسلم بعضه رقم (١٠٥).

* **فائدة**: قال ابن الأثير في «جامع الأصول» (١/ ١٨٤): وقال الشافعي - رحمه الله -: رأيت على باب مالك بن أنس كُراعًا - أي خيلًا - من أفراس خُراسان، وبغال مصر، ما رأيتُ أحسنَ منه، فقلت له: «ما أحسنه!»، فقال: «هو هدية مني إليك يا أبا عبدالله»، فقلت: «دع لنفسك منها دابة تركبها»، فقال: «أنا أستحيي من الله تعالى أن أطأ تربةً فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة» اهـ.

وقد استبعد هذا بعض العلماء المتأخرين، وقطع بأنه مكذوب على الإمامين الجليلين مالك والشافعي، وقال: «لأن الجسد الشريف مَصُون مع الصاحبين في الحُجرة خاصة، وهذا بإجماع المسلمين سلفًا وخلفًا، والذي يتورع أن يطأ تربة المدينة بحافر دابة لكون رسول الله ﷺ مدفونًا فيها؛ يتورع أيضًا عن قضاء الحاجة فيها، لأن هذا أفحش وأقبح، لأنه يلوث الأرض وينجسها، . . وسائر بقاع المدينة لم تكن تربة للجسد الشريف، فهذا التورع خلاف ما عليه الخلفاء الراشدون وسائر الصحابة، وهم أشد الناس حبًا وتعظيمًا للنبي ﷺ وأدبًا معه في حياته وبعد وفاته، ولم ينقل عنهم شيء من ذلك، فلعل هذا من الغلو، وفيه من الحرج والمشقة على الناس ما لا يتفق وشريعته السمحة ﷺ» اهـ. بتصرف واختصار من: «ملاحظاتي حال مطالعاتي» للشيخ سليمان بن حمدان، ص (٤٢ - ٤٤).

فصل

الحياء في العلم

من المجالات التي ينبغي طَرْحُ الحياء فيها: طلب العلم، والتعليم، قال علي -رضي الله عنه-: «لا يستحي الذي لا يعلم أن يَسأل حتى يعلم، ولا يستحي من يُسأل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم».

وقال البخاري: قال مجاهد: «لا يتعلم العلم مُسْتَحْي ولا مستكبر»، وقالت عائشة -رضي الله عنها-: «نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»[(١)].

وقال الخليل بن أحمد: «منزلة الجهل بين الحياء والأنفة».

قال الحافظ ابن حجر -رحمه الله-: « وهو- أي الحياء - الشرعي الذي يقع على وجه الإجلال والاحترام للأكابر، وهو محمود، وأما ما يقع سببًا لترك أمر شرعي؛ فهو مذموم، وليس هو بحياء شرعي، وإنما هو ضعف ومهانة، وهو المراد بقول مجاهد: «لا يتعلم العلمَ مستحي»، وهذا الأثر عن مجاهد وصله أبو نعيم في «الحلية»، وإسناده صحيح على شرط المصنف» اهـ. بمعناه من «الفتح»[(٢)].

وعن الأسود ومسروق قالا: «أتينا عائشة لنسألها عن المباشرة للصائم، فاستحيينا، فقمنا قبل أن نسألها؟ فمشينا لا أدري كم، ثم قلنا:

---

(١) «فتح الباري» (١/٢٢٩).

(٢) نفس المصدر .

جئنا لنسألها عن حاجة، ثم نرجع قبل أن نسألها؟، فرجعنا، فقلنا: «يا أم المؤمنين إنا جئنا لنسألك عن شيء، فاستحيينا، فقمنا»، فقالت: «ما هو؟ سلا عما بدا لكما»، قلنا: «أكان النبي ﷺ يباشر وهو صائم؟» قالت: «قد كان يفعل ذلك، ولكنه كان أملك لإربه منكم»[١].

ورُوي -بسند ضعيف- عن أمير المؤمنين علي -رضي الله عنه- أنه قال يومًا وهو على المنبر: «أيها الناس إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يقطع الصلاةَ إلا الحدث**»، لا أستحييكم مما لا يستحيي منه رسول الله ﷺ، قال: والحدث أن يفسو أو يَضْرِط»[٢].

فلا يليق بالمسلم أن يتنزه عن شيء فعله أو قاله رسول الله ﷺ، وهو أشد الناس حياءً، وأعلمهم بالله -عز وجل-.

وعن زينب ابنة أم سلمة قالت: جاءت أم سُلَيم إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟»، قال النبي ﷺ: «**إذا رأتِ الماء**»، فغطَّت أم سلمة- تعني وجهها- وقالت: يا رسول الله، وتحتلم المرأة؟»، قال: «**نعم، تربت يمينك، ففيم يشبهها ولدها؟**»[٣].

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من الشجر شجرةً لا يسقط ورقها، وهي مَثَلُ المسلم، حدِّثوني**

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦/ ٢١٦)، وانظر: البخاري في الصوم: باب المباشرة للصائم، ومسلمًا رقم (١١٠٦)، وأبا داود رقم (٢٣٨٢)، والترمذي رقم (٧٢٧).

(٢) رواه الإمام أحمد (١/ ١٣٨)، وضعفه العلامة أحمد شاكر حديث رقم (١١٦٤).

(٣) رواه البخاري (١/ ٢٢٩ - فتح).

ما هي؟»، فوقع الناس في شجر البادية، ووقع في نفسي أنها النخلة، قال عبد الله: «فاستحييت»، فقالوا: «يا رسول الله أخبرنا بها»، فقال رسول الله ﷺ: «**هي النخلة**»، قال عبد الله: فحدَّثتُ أبي بما وقع في نفسي، فقال: «لأن تكون قُلْتَها أحبُّ إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا»(١).

فمنعه حياء الإجلال لمن هم أسنُّ منه من الحاضرين من أن يقول ذلك، قال الحافظ: «وكان يمكنه إذا استحيى إجلالاً لمن هو أكبر منه أن يذكر ذلك لغيره سرًّا ليخبر به عنه، فيجمع بين المصلحتين، ولهذا عقبه المصنف- أي البخاري- بباب من استحيى فأمر غيره بالسؤال»(٢).

وقد أورد البخاري في الباب المشار إليه حديث محمد بن الحنفية عن عليٍّ -رضي الله عنه- قال: «كنت رجلاً مذَّاءً(٣)، فأمرت المقداد أن يسأل النبي ﷺ، فسأله، فقال: «فيه الوضوء»(٤)، ولفظه في كتاب الغسل: «كنت رجلاً مذاءً، فأمرت رجلاً أن يسأل النبي ﷺ - لمكان ابنته- فسأل، فقال: «توضأ، واغسل ذكرك».

وفي رواية النسائي: فقلت لرجل جالسٍ إلى جنبي: «سله»، فسأله، وفي مسلم: «فسأله عن المذي يخرج من الإنسان»، وبينت رواية لأبي داود والنسائي وابن خزيمة سبب ذلك، فعن علي قال: «كنت رجلاً مذاءً، فجعلت أغتسل منه في الشتاء حتى تشقق ظهري»(٥)، الحديث.

---

(١) نفس المصدر.

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٣٠).

(٣) مَذَّاء: أي كثير المَذْي وهو البلل اللزج الذي يخرج من الذكر عند تحرك الشهوة، ولا يجب فيه الغسل، وهو نجس يجب غسله، وينقض الوضوء، وانظر: «النهايه» لابن الأثير(٤/ ٣١٢).

(٤) فيه الوضوء: أي المذي يوجب الوضوء..

(٥) رواه البخاري (١/ ٢٣٠- فتح) في الغسل، ومسلم رقم (٣٠٣) في الحيض، =

والحاصل: أنه متى استحيا الإنسان وكان له مندوحة عن سؤال العالم مباشرة؛ فلا بأس من أن يوكِّل غيره في السؤال مراعاة للحياء من جهة، وتحصيلًا للعلم من جهة أخرى.

وهذه أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- استحيت أن تواجه الرجال ببعض الآداب، فأمرت زوجاتهم بإبلاغهم: فعنها رضي الله عنها أنها قالت: «مُرْنَ أَزْوَاجَكُنَّ أَنْ يَسْتَطِيبُوا بِالْمَاءِ فَإِنِي أَسْتَحْيِيهِمْ مِنْهُ، فإنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَفْعَلُهُ»[1].

فائدة: في تقديم بر الوالدين على الحياء من الناس:

كان عمرو بن عبيد[2] يأتي كَهْمسًا[3] يُسلِّم عليه، ويجلس عنده هو وأصحابه، فقالت له أمه: «إني أرى هذا وأصحابه، وأكرههم، وما يُعجبوني، فلا تجالسهم»، فجاء إليه عمرو وأصحابه، فأشرف عليهم، فقال: «إن أمي قد كرِهتك وأصحابك، فلا تأتوني»[4].



= وأبو داود رقم (٢٠٦) إلى (٢٠٩)، والترمذي رقم (١١٤)، والنسائي (١/ ٩٦، ٩٧)، وانظر: «فتح الباري» (١/ ٣٨٠).

(١) تقدم تخريجة ص(٨٣).

(٢) زاهد، عابد، لكنه كان مبتدعًا قدريًا، بل كبير المعتزلة.

(٣) عابد من كبار الثقات، كان عظيم البر بأمه - رحمه الله -.

(٤) «حلية الأولياء» (٦/ ٢١٢).

فصل

الحياء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

إن ترك الحياء في النصح والأمر والنهي الشرعيين من النعوت الإلهية، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِ مِنَ الْحَقِّ﴾، والذي يتهيب تقريع المبطلين لا يعتبر حَيِيًّا، ففي موقف الانتصار للحق، وفضح العقائد الفاسدة، والتهوين من شأن الآلهة المزيفة، قال تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾، وبعد أن حقر آلهتهم، وفضح عجزها عن خلق ذبابة، بل عن حماية نفسها إذا هاجمتها ذبابة؛ قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الآيات.

فليس للحياء موضع إذا ضل الناس، أو انتفش الباطل، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**لا يمنعن رجلًا هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا علمه، أو شهده، أو سمعه**»(١)، وقال عبيد بن عمير: «آثروا الحياء من الله على الحياء من الناس»، فالأمر الشرعي- وإن كان يُتَوَهم أن في تركه أدبًا وحياءً - فإن الحزم كل الحزم اتباع الأمر الشرعي وأن يُجْزَمَ أن ما خالفه ليس من الأدب في شيء.

قَالَ صَاحِبُ «فَضْلِ اللهِ الصَّمَدِ»: «فَإِنْ قِيلَ إِنَّ صَاحِبَ الحَيَاءِ قَدْ

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٧)، والحاكم (٤/٥٠٦)، وأحمد (٣/١٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٦٨).

يَسْتَحْيِي أَنْ يُوَاجِهَ بِالحَقِّ، فَيَتْرُكَ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ والنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ، وَقَدْ يَحْمِلُهُ الحَيَاءُ عَلَى الإِخْلَالِ بِبَعْضِ الحُقُوقِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي العَادَةِ، فَأَقُولُ: إِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِحَيَاءٍ حَقِيقَةً، بَلْ هُوَ عَجْزٌ وَخَوَرٌ وَمَهَانَةٌ، وَإِنَّمَا أَطْلَقُوا عَلَيْهِ حياءً تشبيهًا ومجازًا[1]، وإنما يكونُ الحياءُ حقيقيًّا حيثُ يكونُ قبحُ المُسْتَحْيَا مِنْهُ حَقِيقِيًّا، فَلَا يَدْخُلُ فِيهِ الانْقِبَاضُ عَمَّا يَسْتَقْبِحُهُ النَّاسُ وَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ حَسَنٌ، وَلَا الانْقَبَاضُ عَمَّا هُوَ فِي الأَصْلِ قَبِيحٌ وَلَكِنَّ الانْقِبَاضَ عَنْهُ يُؤَدِّي إِلَى مَا هُوَ أَقْبَحُ مِنْه، مِثَالُ ذَلِكَ مَا يَقَعُ مَنْ بَعْضِ خَرِعَاتِ[2] النِّسَاءِ، يَعْرِضُ لَهَا فَاجِرٌ فِي خَلْوَةٍ يُحَاوِلُ اسْتِكْرَاهَهَا، فَتَنْقَبِضُ نَفْسُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَغِيثَ وَتَصْرُخَ، لأَنَّهَا تَسْتَقْبِحُ أَنْ يَشِيعَ عَنْهَا أَنَّ فَاجِرًا تَعَرَّضَ لَهَا، وَلَوْ عَقَلَتْ لَعَلِمَتْ أن شُيُوعَ ذَلِكَ لَيْسَ بِقَبِيحٍ إِذَا اقْتَرَنَ بِإِبَائِهَا عَنِ الفَاحِشَةِ، والنَّاسُ يُثْنُونَ عَلَيْهَا بِالعِفَّةِ والحَزْمِ والثَّبَاتِ إِذَا سَمِعُوا أَنَّهَا انْتَهَرَتْهُ وَصَرَخَتْ بِأَهْلِهَا فَجَاءُوا وَدَفَعُوهُ، وَعَلَى ذَلِكَ فَالحَيَاءُ فِي قَوْلِهِ ﷺ: **(الحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ)** هُوَ الحَيَاءُ الحَقِيقِيُّ.

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ ﷺ كَانَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنْ العَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، وَهُوَ لَنَا فِي ذَلِكَ قُدْوَةٌ- لا يَقُومُ دُونَ غَضَبِهِ شَيْءٌ إِذَا انْتُهِكَتْ حُرُمَاتُ اللهِ»[3].

وقد زَخَرَ التاريخ الإسلامي بنماذج رائعة لوضوح هذا المفهوم عند السلف ومن تبعهم من الخلف، فمن ذلك:

ما حكاه سالم بن عبد الله قال: أعرست في عهد أبي، فآذن أبي

(١) «فضل الله الصمد» (٢/ ٥٤).

(٢) خَرِع الشيء: لان، واسترخى، وضعُف.

(٣) «فضل الله الصمد» (٢/ ٦٩١، ٦٩٢).

الناس، وكان أبو أيوب فيمن آذنًا، وقد ستروا بيتي بِنِجاد[١] أخضر، فأقبل أبو أيوب فدخل، فرآني قائمًا، واطلع فرأى البيت مستترًا بنجاد أخضر، فقال: «يا عبد الله! أتسترون الجدر؟!» قال أبي - واستحيى-: «غلبَنا النساءُ أبا أيوب!» فقال: «من كنتُ أخشى عليه أن تغلبنه النساء فلم أكن أخشى عليك أن تغلبنك!»، ثم قال: «لا أطعم لكم طعامًا، ولا أدخل لكم بيتًا»، ثم خرج رحمه الله[٢].

ومن هذه المواقف: ما حكاه عبد الرزاق بن سليمان بن علي بن الجعد قال: سمعت أبي يقول: «لما أحضر المأمون أصحاب الجوهر، فناظرهم على متاع كان لهم، ثم نهض المأمون لبعض حاجته، ثم خرج، فقام كل من كان في المجلس إلا ابن الجعد، فإنه لم يقم، قال: فنظر إليه المأمون كهيئة المغضب، ثم استخلاه، فقال له: يا شيخ ما منعك أن تقوم لي كما قام أصحابك؟ قال: أجللت أمير المؤمنين للحديث الذي نأثره عن النبي ﷺ، قال: وما هو؟ قال علي بن الجعد: سمعت المبارك ابن فضالة يقول: سمعت الحسن يقول: قال النبي ﷺ: «**من أحب أن يمثل له الناس قيامًا، فليتبوأ مقعده من النار**»[٣]، قال: فأطرق المأمون متفكرًا في الحديث، ثم رفع رأسه فقال: «لا يُشْتَرى إلا من هذا الشيخ» قال: «فاشترى منه في ذلك اليوم بقيمة ثلاثين ألف دينار»[٤].

(١) نجاد: بكسر النون، جمع «نجد»، وهو ما يرين به البيت من البسط والوسائد والفرش.

(٢) عزاه الألباني في «آداب الزفاف» ص (٢٠١) إلى الطبراني، وابن عساكر، والمروزي في «الورع» تعليقًا، و «شرح السنة».

(٣) أخرجه موصولاً البخاري في «الأدب» رقم (٩٧٧)، وأبو داود (٥٢٢٩)، والترمذي رقم (٢٧٥٥)، والإمام أحمد (٤/٩٣)، وحسنه الترمذي، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٥٧).

(٤) «تاريخ بغداد» (١١/ ٣٦١).

وقال أحمد بن علي البصري: «وجه المتوكل إلى أحمد بن العدل وغيره من العلماء، فجمعهم في داره، ثم خرج عليهم، فقام الناس كلهم إلا أحمد بن العدل، فقال المتوكل لعبيد الله: «إن هذا الرجل لا يرى بيعتنا»، فقال له: «بلى يا أمير المؤمنين! ولكن في بصره سوء»، فقال أحمد بن العدل: يا أمير المؤمنين ما في بصري من سوء، ولكنني نزَّهتك من عذاب الله تعالى، قال النبي ﷺ: «**من أحب أن يمثل له الرجال قيامًا، فليتبوأ مقعده في النار**»، فجاء المتوكل فجلس إلى جنبه»[(١)].

وكان الإمام الجليل سفيان الثوري -رحمه الله- شديد الحياء، وقال الإمام ابن مهدي -رحمه الله-: «ما كنت أقدر أن أنظر إلى سفيان استحياءً وهيبةً منه»، ومع ذلك فكان في مواقع الحمية والغضب لدين الله -عز وجل- لا يعرف الاستحياء في الحق، حتى قال يحيى بن أبي غنية: «ما رأيت رجلًا قط أصفق وجهًا في الله -عز وجل-[(٢)] من سفيان الثوري».

وأنكر مرة على المهدي بعض الأمور، واشتد في الإنكار حتى قال له وزير المهدي: «شططتَ: تكلم أمير المؤمنين بمثل هذا؟» فقال له سفيان: «اسكت، ما أهلك فرعونَ إلا هامانُ»، فلما ولَّى سفيان، قال أبو عبيد الله: «يا أمير المؤمنين: ائذن لي أضرب عنقه»، فقال له: «اسكت، ما بقي على وجه الأرض من يُستحيا منه غير هذا».

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن مصعب: أن رجلًا أعمى كان يجالس سفيان، فكان إذا كان شهر رمضان، خرج إلى السواد فيصلي بالناس، فيُكسى، ويوهَبُ له، فقال سفيان: «إذا كان يوم القيامة؛ أثيب أهل

(١) أخرجه الدينوري في «المنتقى من المجالسة»، كما في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٧٣).
(٢) أي لا يجامل ولا يداري غيرة على الدين.

القرآن من قرآنهم، ويقال لمثل هذا: قد تعجلتَ ثوابك»، فقال له الرجل: «يا أبا عبد الله، تقول هذا لي وأنا جليس لك؟!»، قال سفيان: «إني أتخوف أن يقال لي يوم القيامة: إنه كان جليسًا لك أفلا تنصحه؟»».

وكان الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن عليٍّ المقدسي إذا سمع من أحدٍ غِيبة -ولو جَلّ- بادره- وهو يبتسم- بقوله: «أستغفر الله»[(١)].

واغتاب رجل كبير رجلًا بحضرة العلامة محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-، فنهاه الشيخ، فقال المغتاب: «أنا المتكلم لا أنت»، فرد عليه الشيخ بقوله: «أنا شايب بين جنبي سورة البقرة، تسكت بأدب، أو تخرج»[(٢)].

وقال عبد الرحمن رُسْتَه: سألت ابن مهدي عن الرجل يبني بأهله، أيترك الجماعة أيامًا؟ قال: «لا، ولا صلاة واحدة»، وحضرتُه صبيحة بُني على ابنته، فخرج فأذَّن، ثم مشى إلى بابهما، فقال للجارية: قولي لهما: يخرجان إلى الصلاة، فخرج النساءُ والجواري، فقلن: «سبحان الله، أي شيء هذا؟!»، فقال: «لا أبرح حتى يخرجا إلى الصلاة»، فخرجا بعدما صلى، فبعث بهما إلى مسجد خارج من الدرب[(٣)].

صور من الحياء المذموم:

- أن تمد امرأة أجنبية يدها إلى رجل فيصافحها، ويزعم أنه استحيا منها، وقد قال رسول الله ﷺ: **«لأن يُطعَنَ في رأس أحدكم بمِخْيَطٍ من حديد؛ خير له من أن يمس امرأة لا تحل له»**[(٤)].

---

(١) «المختار المصون» (١/ ٥٤٠).

(٢) «ترجمة الشيخ الشنقيطي» للشيخ عبد الرحمن السديس ص (٢٠٤- ٢٠٥).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٢٠٤)، و«حلية الأولياء» (٩/ ١٣).

(٤) رواه الطبراني، والبيهقي، ورجال الطبراني ثقات رجال الصحيح كذا في «الترغيب» (٣/ ٦٦)، وقال الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٢٦): «هذا سند جيد». اهـ.

- أن يُقرِض رجلٌ رجلًا مالاً وهو لا يثق بأمانته، ويَوَدُّ أن لو أشهد عليه الملائكةَ والجن والإنس، ومع ذلك يستحيي أن يستكتبه الدَّيْن أو أن يُشهد عليه، أو يمكِّن سفيهًا من ماله استحياءً منه، فيبدده شَذَرَ مَذَرَ.

عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة يدعون الله -عز وجل- فلا يُستجابُ لهم: رجل كانت تحته امرأةٌ سيئة الخلُق فلم يُطَلِّقْهَا**[١]**، ورجل كان له على رجل مال فلم يُشْهِدْ عليه**[٢]**؛ ورجلٌ آتى سفيهًا**[٣] **ماله؛ وقال الله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾**[٤].

وقد طرح السلف الصالح الاستحياء في مواطن إثبات الحقوق، واستحسنوا ذلك:

لما لقي الإمامَ مالكًا تلميذُه الشافعيُّ بالمدينة، وأهداه مالك مالاً عظيمًا، قال الشافعي: «إنك موروث، وأنا موروث، فلا يثبت جميع ما وعدتَني إلا تحت ختمي ليجري ملكي عليه، فإن حضرني أجلي كان

(١) فإذا دعا عليها لا يستجيب له، لأنه المعذب نفسه بمعاشرتها، وهو في سَعَة من فراقها، ولا يفهم من هذا ندبه إلى تطليقها، وإنما هو حث على عدم أذيتها بالدعاء عليها، ببيان أنه لا يستجاب دعاؤه عليها.

(٢) يعني: فأنكره، فإذا دعى لا يستجاب له، لأنه المفرِّط المقصر بعدم امتثال قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾، وهذا جزء من آية الدَّيْن وهي أطول آية في القرآن الكريم، وقد نزلت تبين الضمانات الكفيلة بحفظ مال المسلم، رعاية لمصلحته.

(٣) أي محجورًا عليه بسفهٍ «مالَه» أي شيئًا من ماله مع علمه بالحجر عليه، فإذا دعى عليه لا يستجاب له، لأنه المضيع لماله فلا عذر له- وانظر «فيض القدير» (٣/ ٣٣٦).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٠٢)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (١٨٠٥).

لورثتي دونك، وإن حضرك أجلك كان لي دون ورثتك»، فتبسم في وجهي، وقال: «أبيتَ إلا العلم»، فقلت: «لا يُستعمل أحسنُ منه»، قال الشافعي: «فما بِتُّ إلا وجميعُ ما وعدني به تحت خاتَمي»(١).

فائـدتان:

الأولى: نقل ابن قدامة عن الإمام أحمد أنه قال: «إني لأرى الشيخَ المخضوبَ فأفرح به»، وذاكر الإمام أحمد رجلًا، فقال: «لم لا تختضب؟» فقال: «أستحيي»، قال: «سبحان الله! سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم»(٢).

الثانية: سمـع أُبيُّ بن كعب - رضي الله عنه - رجلًا قال: «يالَ فلانٍ!»، فقال له أُبيٌّ: «اعضض بِهَنِ أبيك»، ولم يَكْنِ، فقال الرجل: «يا أبا المنذر! ما كنت فحّاشًا»، فقال أُبيٌّ - رضي الله عنه -: إني لا أستطيع إلا ذلك، إني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**من تعزَّى بعَزاء الجاهلية؛ فأَعِضُّوه بِهَنِ أبيه، ولا تكنوا**»(٣).

قال البغوي - رحمه الله -: «يجاهره بمثل هذا اللفظ الشنيع ردًّا لما أتى به من الانتماء إلى قبيلته، والافتخار بهم» اهـ(٤). وقال الحافظ في موقف مماثل: «وفيه جواز النطق بما يُستبشع من الألفاظ لإرادة زجر من بدا منه ما يستحق به ذلك» اهـ(٥).

(١) «رحلة الإمام الشافعي» ص (٢٦-٢٧).

(٢) «المغني» (١/ ٦٦).

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢/ ٤٢٧)، والإمام أحمد (٥/ ١٣٦)، وغيرهما، وصححه في «الصحيحة» رقم (٢٦٩)، وانظر: «لسان العرب» (٧/ ١٨٨).

(٤) «شرح السنة» (١٣/ ١٢٠).

(٥) «فتح الباري» (٦/ ٦٣٧) ط. طيبة - الرياض.

رابعًا: الاستحياء من الله جل وعلا

«الحياء خير كله»، و«الحياء لا يأتي إلا بخير»، لأن من استحيا من الناس لا يفعل ما يُخجله إذا عُرف منه أنه فعله، فكان من أعظم بركة الحياء من الناس تعويدُ النفس ركوبَ الخصال المحمودة، ومجانبتها الخلال المذمومة.

ومن استحيى من الناس أن يروه بقبيح؛ دعاه ذلك إلى أن يكون حياؤه من ربه أشدَّ، فلا يضيع فريضة، ولا يرتكب خطيئة، لأن المؤمن يعلم بأن الله يرى كل ما يفعله، فيلزمه الحياء منه لعلمه بذلك، وبأنه لا بد أن يقرره يوم القيامة على ما عمله، فيخجل، فيؤديه إلى ترك ما يخجل منه، وذلك هو الحياء، فمِن ثَمَّ لا يأتي إلا بخير.

عن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم لأصحابه: «**استحيوا من الله حق الحياء**»، قالوا: «إنا نستحيي يا رسول الله»، قال: «**ليس ذاكم**[١]**، ولكن من استحيى من الله حق الحياء: فليحفظ الرأس وما وَعَى**[٢]**، وليحفظ البطن وما حَوَى**[٣]**، وليذكر الموتَ**

---

(١) قال البيضاوي -رحمه الله-: يعني «ليس حق الحياء من الله ما تحسبونه، بل أن يحفظ نفسه بجميع جوارحه عما لا يرضاه من فعل وقول» اهـ. نقلًا من «الفتح الرباني» (١٩/ ٩٠).

(٢) ما جمعه من الحواس الظاهرة والباطنة حتى لا يستعملها إلا فيما يحل.

(٣) أي: وما جمعه جوفه باتصاله به من القلب والفرج واليدين والرجلين، فلا يستعمل منها شيئًا في معصية الله -عز وجل-.

والبِلى[١]، **ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا**[٢]، **فمن فعل ذلك**[٣]، **فقد استحيى من الله حق الحياء**»[٤].

وعن معاوية بن حيدة -رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «**احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك**»، قلت: يا رسول الله، إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «**إن استطعت أن لا يرينَّها أحد فلا تُرِيَنَّها أحدًا**»، قلت: يا رسول الله، إذا كان أحدنا خاليًا؟ قال: «**الله أحق أن يُستحيا منه من الناس**»[٥].

---

(١) لأن من ذكر أن عظامه تصير بالية، وأعضاءه متمزقة؛ هان عليه ما فاته من اللذات العاجلة، وأهمه ما يلزمه من طلب الآجلة، وعمل على إجلال الله وتعظيمه.

(٢) لأنهما ضَرَّتان إذا أرضيتَ إحداهما أغضبتَ الأخرى، فمن أراد الله -تعالى- فليرفض جميع ما سواه استحياءً منه، بحيث لا يرى إلا إياه.

(٣) الإشارة إلى جميع ما مر، فمن أهمل من ذلك شيئًا، لم يخرج من عهدة الاستحياء.

(٤) رواه الإمام أحمد (١/ ٣٨٧)، والترمذي رقم (٢٥٨٨) وقال: «هذا حديث غريب»، والحاكم (٤/ ٣٢٣)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢/ ٢٩٩).

قال بعض العلماء: «يستحب لكل أحد صحيح أو مريض الإكثارُ من ذكر هذا الحديث، بحيث يصير نُصْبَ عينيه، والمريض أولى».

(٥) رواه الإمام أحمد (٥/ ٣-٤)، وأبو داود رقم (٤٠١٧)، والترمذي رقم (٢٧٩٤)، (٢٧٦٩)، وحسنه، والحاكم (٤/ ١٨٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي (١/ ١٩٩)، وحسنه الألباني في «آداب الزفاف» ص(١١٢)، وهو محمول على الندب والكمال، وليس على ظاهره المفيد الوجوب، والله أعلم، وانظر: «أحكام النظر» للحموي ص (١١٦)، و «مجموع الفتاوى» (١٥/ ٤١٥)، و«فيض القدير» (٢/ ٢٢٨) حديث رقم (١٧٢٩)، و«المجموع» (٣/ ١٥٦).

فإذا حَرَّض ﷺ على الستر في الخلوة تأدبًا مع الله -عز وجل- واستحياءً منه وهو أمر مختلف في وجوبه أو استحبابه، فكيف ينبغي أن يكون حياء الإنسان منه -تعالى- إذا فقده حيث أمره، أو رآه حيث نهاه؟[١]

عن يعلى بن أمية -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يغتسل بالبَراز بلا إزار، فصعد المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال ﷺ: «**إن الله عز وجل حيي ستير يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر**»[٢].

قال كعب: «استحيوا من الله في سرائركم كما تستحيون من الناس في علانيتكم».

وقد صرح الله -عز وجل- أن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً.

قال العلامة القرآني محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله-: «.. إذا لاحظ الإنسان الضعيف أن ربه -جل وعلا- ليس بغائب عنه، وأنه مطلع على كل ما يقول وما يفعل وما ينوي؛ لان قلبه، وخشي الله -تعالى-، وأحسن عمله لله -جل وعلا-.

ومن أسرار هذه الموعظة الكبرى أن الله تبارك وتعالى صرح بأن الحكمة التي خلق الخلق من أجلها هي أن يبتليهم أيهم أحسن عملاً، ولم يقل: أيهم أكثر عملاً، فالابتلاء في إحسان العمل، كما قال تعالى في

---

(١) البَراز: الفضاء الواسع الخالي من الشجر ونحوه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٠١٢)، والنسائي (١/ ٧٠)، والبيهقي (١/ ١٩٨)، وصححه الألباني في «الإرواء» (٧/ ٣٦٧).

هذه السورة الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الآية [هود: ٧].

وقال في الملك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] .

ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلق من أجلها هي أن يُبتلى أي يُختبر بإحسان العمل؛ فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار، ولهذه الحكمة الكبرى سأل جبريل النبي ﷺ عن هذا ليعلمه لأصحاب النبي ﷺ فقال: «أخبرني عن الإحسان» - أي: وهو الذي خُلق الخلق لأجل الاختبار فيه- فبين النبي ﷺ أن الطريق إلى ذلك هي هذا الواعظ، والزاجر الأكبر الذي هو مراقبة الله تعالى، والعلم بأنه لا يخفى عليه شيء مما يفعل خلقه، فقال له: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

هكذا فسَّر رسول الله ﷺ الإحسان تفسيرًا لا يستطيعه أحد من المخلوقين غيره لِما أعطاه الله تعالى من جوامع الكلم.

وقال أيضًا - رحمه الله تعالى-: قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥] .

يبين تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه لا يخفى عليه شيء، وأن السر كالعلانية عنده، فهو عالم بما تنطوي عليه الضمائر، وما يعلن، وما يسر، والآيات المبينة لهذا كثيرة جدًا، كقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا

---

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٩-١٠) بتصرف.

﴿تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقـولـه جـل وعـلا: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ﴾ [البـقـرة: ٢٣٥]، وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [يونس: ٦١].

ولا تقلبُ ورقة من المصحف الكريم إلا وجدتَ فيها آية بهذا المعنى(١).

تنبيه مهم:

اعلم أن الله -تبارك وتعالى- ما أنزل من السماء إلى الأرض واعظًا أكبر، ولا زاجرًا أعظم مما تضمنته هذه الآيات الكريمة وأمثالها في القرآن، من أنه تعالى عالم بكل ما يعمله خلقه، رقيب عليهم، ليس بغائب عما يفعلون، وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر، والزاجر الأعظم مثلًا ليصير به كالمحسوس، فقالوا: لو فرضنا أن مَلِكًا قتالاً للرجال، سفاكًا للدماء شديد البطش والنكال على من انتهك حرمته ظلمًا، وسيَّافه

(١) وما ذاك إلا لتتربى قلوب المؤمنين على المراقبة عن طريق التعبد بأسمائه الحسنى: الرقيب، الشهيد، الحفيظ، العليم، السميع، البصير، فمن عقل هذه الأسماء، وتعبد بمقتضاها حصلت له المراقبة، من مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي يعلم كل شيء بالمعاينة والرؤية، فكل شيء عنده مشهود، وليس عليه غيب، ولا يخفاه سر، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وقـولـه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وقـولـه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقـولـه: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾.

قائم على رأسه، والنِّطع[١] مبسوط للقتل، والسيف يقطر دمًا، وحول هذا الملك -الذي هذه صفته- جواريه وأزواجه وبناته، فهل ترى أن أحدًا من الحاضرين يَهُمُّ بريبة أو بحرام يناله من بنات ذلك الملك وأزواجه، وهو ينظر إليه، عالم بأنه مطلع عليه؟! لا، وكلا: بل جميع الحاضرين يكونون خائفين، وجلةً قلوبُهم، خاشعةً عيونُهم، ساكنةً جوارحُهم خوفًا من بطش ذلك الملك[٢].

ولا شك- ولله المثل الأعلى- أن رب السموات والأرض -جل وعلا- أشد علمًا، وأعظم مراقبة، وأشد بطشًا، وأعظم نكالاً وعقوبة من ذلك الملك، وحِماه في أرضه محارمه» اهـ[٣].

لقد جعل الله -عز وجل- التزكية إحدى المهمات التي من أجلها بَعَثَ رسولَه ﷺ، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. [آل عمران: ١٦٤]

وأقسم الله -عز وجل- أحدَ عشرَ قسمًا على حقيقة واحدة هي قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وبين أنه لا يدخل الجنة إلا نفس زكية طاهرة طيبة، قال عز وجل: ﴿وَسِيقَ

---

(١) النِّطع: بساط من الجلد، كثيرًا ماكان يُقتل فوقه المحكومُ عليه بالقتل.

(٢) ونظير ذلك ما استحدث في المستشفيات والمصانع والمحلات التجارية حيث تبث الكاميرات التليفزيونية في شتى المواقع لمراقبة العمال واللصوص، الذين ينزجرون بذلك لاحتمال تسلط الكاميرا عليهم وبالتالي انكشاف أمرهم، ولله المثل الأعلى.

(٣) «أضواء البيان» (٣/ ٩-١٠) بتصرف، والحِمى: موضع فيه كَلأ يُحمى من الناس أن يُرعى.

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

فَمِن ثَمَّ رفع النبي ﷺ شأن تزكية النفس، فقال ﷺ: «**ثلاثٌ من فعَلَهن فقد طَعِم طَعْمَ الإيمان: من عَبَدَ الله وحده، وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاةَ مالِهِ طيبةً بها نفسُه، رافدةً**(١) **عليه كُلَّ عام، ولا يُعطي الهَرِمَةَ، ولا الدَّرِنَةَ**(٢)**، ولا المريضة، ولا الشَّرَطَ**(٣)**، اللئيمة**(٤)**، ولكن من وَسَط أموالكم**(٥)**، فإن الله لم يسألْكم خيرَه، ولم يأمركم بشره**»(٦).

زاد البيهقي في روايته: «**وزكّى عبدٌ نفسَه**»، فقال رجل: ما تزكية المرء نفسَه يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**يعلم أن الله -عز وجل- معه حيث ما كان**». قال الإمام محمد بن يحيى الذُّهْلي: «يريد أن الله علمُه محيط بكل مكان، والله على العرش»(٧).

وعن أسامة بن شريك - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ:

---

(١) رافدة: فاعلة من الرِّفد، وهو الإعانة والعطاء والصلة، يقال: رفدته أرفده إذا أعنته، أي تعينه نفسه على أداء الزكاة.

(٢) الدرِنة: الجرباء، وأصل الدرن: الوسخ.

(٣) الشرَط: قال أبو عبيد: هو صغار المال وشراره، وقال الخطابي: والشرط: رُذالة المال.

(٤) اللئيمة: البخيلة باللبن، ويقال: لئيم، للشحيح، والدني النفس، والمهين.

(٥) فيه دليل على أنه ينبغي إخراج الزكاة من أوساط المال، لا من شراره، ولا من خياره.

(٦) رواه أبو داود (١٥٨٢) بسند فيه انقطاع، ووصله الطبراني في «الصغير» ص (١١٥)، والبيهقي في «السنن» (٤/ ٩٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٠٤٦).

(٧) انظر: «مختصر العلو للذهبي» ص(٢٠١).

«ما كَرِهْتَ أن يراه الناس؛ فلا تفعله إذا خلوت»[١].

أي: إذا كنت في خلوة بحيث لا يراك إلا الله -تعالى- والحفظة، وهذا ضابط وميزان.

وقال النابغة:

إن من يركبُ الفواحشَ سِرًّا حين يخلو بسره غيرُ خالِ
كيف يخلو وعنده كاتباه شاهداه وربُّه ذو المِحَال[٢]

وعن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- أنه قال: «لا يجد عبدٌ صريح الإيمان حتى يعلم بأن الله -تعالى- يراه، فلا يعمل سِرًّا يُفتضح به يوم القيامة».

وعن عبد الله بن دينار قال: «خرجت مع ابن عمر إلى مكة، فعرَّسنا[٣]، فانحدر علينا راعٍ من جبل، فقال له ابن عمر: أراعٍ؟ قال: نعم، قال: بِعْني شاةً من الغَنَم، قال: إني مملوك، قال: قل لسيِّدك: أكلها الذئب، قال: فأين الله عز وجل؟ قال ابن عمر: فأين الله!! ثم بكى، ثم اشتراه بعدُ، فأعتقه!»[٤]، وفي رواية: «فأعتقه، واشترى له الغنم»[٥].

---

(١) رواه ابن حبان في «روضة العقلاء» ص (١٢-١٣)، والضياء في «المختارة»، وحسَّنه الألباني في « الصحيحة» رقم (١٠٥٥).

(٢) «ديوان النابغة» ص (٦٤)، وذو المِحَال: عظيم المكر، شديد العقوبة.

(٣) عَرَّس المسافرون وأعرسوا: نزلوا آخِر الليل للراحة.

(٤) انظر «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٤٧): ونسبه للطبراني، وقال: «ورجاله رجال الصحيح، غير عبد الله بن الحارث الحاطبي، وهو ثقة».

(٥) وفي «الإحياء» (٤/ ٣٩٦) : أن الذي كان مع ابن دينار أمير المؤمنين عمر- رضي الله عنه-، وفي آخره: أنه أعتقه، وقال: «أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تُعتِقَك في الآخرة».

وقال أبو الفتح بن مخرق: تعلَّق رجل بامرأة من بنات الشام، فتعرض لها وبيده سكِّين، لا يدنو منه أحد إلا عَقَره، وكان الرجل شديدَ البدن، فبينا الناس كذلك، والمرأة تصيح من يده، إذ مرَّ بشْرُ بن الحارث الحافي، فدنا منه وحكَّ كَتِفه بكتف الرجل، فوقع الرجل إلى الأرض، ومضى بِشْرٌ، فدنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا كثيرًا، ومضتِ المرأة بحالها، فسألوه: «ما حالك؟» فقال: ما أدري، ولكني حاكني شيخٌ، وقال: «إن الله ناظر إليك وإلى ما تعمل»؛ فضعفت لقوله قدميَّ، وهِبْتُهُ هيبة شديدة، لا أدري مَن ذاك الرجل؟ فقالوا له: «ذاك بشر بن الحارث»، فقال: «وا سوءتَاه!! كيف ينظر إليَّ بعد اليوم؟!»، وحُمَّ الرجل من يومه، ومات اليوم السابع[1].

وقال أبو عبد الله الأنطاكي: «أفضل الأعمال: ترك المعاصي الباطنة»، فقيل له: ولم ذلك؟ قال: «لأن الباطنة إذا تُركت كان صاحبها للمعاصي الظاهرة أَتْرَكَ».

وقال بعض أهل العلم: «من كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، ومن تساوت سريرته وعلانيته فذلك العدل، ومن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور».

وفي قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ تنبيه على أن العبد إذا علم أن ربه يراه استحيى من ارتكاب الذنب.

ومن علم أن معبوده مشاهد لعبادته تعين عليه تزيين ظاهره بالخشوع، وباطنه بالإخلاص والحضور، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

---

(١) كتاب «التوابين» لابن قدامة ص (٢١٣).

قال ابن المبارك لرجل: «راقب الله تعالى»، فسأله عن تفسيره فقال: «كن أبدًا كأنك ترى الله عز وجل».

وقال سفيان الثوري: «عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء».

وقال ابن منظور-رحمه الله-: «فسَّر النبي ﷺ الإحسان حين سأله جبريل، صلوات الله عليهما وسلامُه، فقال: «**هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحُسْن الطاعة، فإن من راقب الله أحسن عمله»[1].

وعن حاتم الأصم قال: «لو أن صاحب خبر جلس إليك، لكنت تتحرز منه، وكلامُك يُعرض على الله فلا تحترز!»[2].

وقال الربيع بن خثيم: «إذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا هممت فاذكر علمه بك، وإذا نظرت فاذكر نظره إليك، وإذا تفكرت فاذكر اطلاعه عليك، فإنه يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وعن زيد بن علي قال: «إني لأستحيي من عظمته أن أفضيَ إليه بشيء أستخفيه من غيره»[3].

وقال أبو عثمان الزاهد: «سرائرَكم سرائرَكم، فإن المطلع على السرائر يراقبكم»[4].

---

(١) «لسان العرب» (١٣/ ١١٥-١١٧).

(٢) «نزهة الفضلاء» (٢/ ٩٦١).

(٣) «شعب الإيمان» (٦/ ١٥٠) رقم (٧٧٥١).

(٤) «نفس المرجع».

وقال رجل للجنيد: «بم أستعين على غض البصر؟» فقال: «بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبقُ من نظرك إلى المنظور إليه».

وقال حميد الطويل لسليمان بن عليٍّ: عظني، فقال: «لئن كنت إذا عصيت الله خاليًا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم، ولئن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت».

قال محمود الوراق:

ألا أيها المستطرف الذنب جاهلًا هو الله لا تخفى عليه السرائرُ
فإن كنت لم تعرفه حين عصيته فإن الذي لا يعرفُ اللهَ كافر
وإن كنت من علم به قد عرفته عصيت فأنت المستهين المجاهر
فأيها حالك اعتقدت فإنه عليم بما تُطْوَى عليه الضمائر[١]

قال الجنيد: «معاشر الفقراء: إنما عُرِفتم به، وأُكرِمتم من أجله، فإذا خلوتم؛ فانظروا كيف تكونون معه»[٢]، وقال رحمه الله: « من راقب الله في السر؛ حُرِست جوارحه»[٣].

وعن محمد بن واسع قال: كان لقمان -عليه السلام- يقول لابنه: «يا بني اتق الله، ولا تُرِ الناس أنك تخشى الله -عز وجل- ليكرموك بذلك، وقلبك فاجر».

وعن الأوزاعي قال: سمعت بلال بن سعد يقول: « لا تكن وليًّا لله -عز وجل- في العلانية، وعدوَّه في السر».

---

(١) «نفسه» (٥/ ٤٦١).

(٢) «نفسه» (٥/ ٣٦٨).

(٣) «نفسه» (٥/ ٤٦١).

وعن ابن الأعرابي قال: «أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد».

وقال الشافعي -رحمه الله-: «أشد الأعمال ثلاثة: الجود في القلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يُرجَى ويُخاف».

وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قال: «هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه».

وعنه رحمه الله قال: «من النفاق اختلاف اللسان والقلب، واختلاف السر والعلانية، واختلاف الدخول والخروج».

وقال فرقد: «إن المنافق ينظر: فإذا لم ير أحدًا دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناسَ، ولا يراقب الله تعالى».

وعن يحيى بن معاذ الرازي قال: «من خان الله في السر؛ هتك ستره في العلانية»[1].

يا كاتم السر ومخفيه أين من الله تواريه
بارزتَ بالعصيانِ ربَّ العُلى وأنت من جارك تخفيه

آخر:

مَن عامَلَ الله بتقواهُ وكان في الخلوات يخشاه
سقاه كأسًا من لذيذ المنى يُغنيه عن لذةِ دنياه

آخر:

وإذا خلوتَ بريبةٍ في ظلمة والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيانِ

(١) «نفسه» (٥/ ٤٦٠).

فاستحيِ من نظر الإله وقل لها   إن الذي خلق الظلام يراني

استوصى رجل بعض السلف، فقال: «أوصيك بحفظ نفسك من نفسك، وتذكر قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾.

وإذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل   خلوتُ ولكنْ قل عَلَيَّ رقيبُ

لا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما تُخفيهِ عنه يغيب

ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب   وأن غدًا للناظرين قريب

قال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله تعالى-: «إنَّ العَبْدَ مَتى عَلِمَ أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى نَاظِرٌ إِلَيْهِ أَوْرَثَهُ هَذَا العِلْمُ حَيَاءً مِنْهُ سُبْحَانَهُ، فَيَجْذِبُهُ إِلى احْتِمَالِ أَعْبَاءِ الطَّاعَةِ، وَذَلِكَ كَمَثَلِ العَبْدِ إِذَا عَمِلَ الشُّغْلَ بَيْنَ يَدَيْ سَيِّدِهِ، فَإِنَّهُ يَكُونُ نَشِيطًا فِيهِ، مُحْتَمِلاً لأَعْبَائِهِ، وَلَا سِيَّمَا مَعَ الإِحْسَانِ مِنْ سَيِّدِهِ، وَاللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- لَا يَغِيبُ نَظَرُهُ عَنْ عَبْدِهِ، فَإِذَا مَا غَابَ نَظَرُ العَبْدِ عَنْ كَوْنِ المَوْلَى نَاظِرًا إِلَيْهِ تَوَلَّدَ مِنْ ذَلِكَ قِلَّةُ الحَيَاءِ وَالقِحَةُ، هَذَا وَلاسْتِقْبَاح الْجِنَايَةِ النَّاشِئ عَنِ الحَيَاءِ دَرَجَتَان أُخْرَيَانِ، دُنْيَا: وَهِيَ الاسْتِقْبَاحُ الحَاصِلُ عَنْ مُلَاحَظَةِ الوَعِيدِ، وَعُلْيَا: وَهِيَ الاسْتِقْبَاحُ الحَاصِلُ عَنِ المَحَبَّةِ.

وَمِنَ الحَيَاءِ ما يَتَوَلَّدُ مِنْ تَحَقُّقِ القَلْبِ بِالْمَعِيَّةِ الخَاصَّةِ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1].



(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥).

فصـل

خلوة الذين يستحيون من الله جل وعلا

عن أنسٍ -رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**ثلاث منجيات: خشية الله تعالى في السر والعلانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغنى**»[١] الحديث.

وكان ﷺ يقول في دعائه: «**اللَّهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك**»[٢] الحديث، وكان يقول أيضًا: «**وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة**»[٣].

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلَّقٌ بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله، فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه،**

(١) قال المنذري في «الترغيب»: «رواه البزار والبيهقي وغيرهما، وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده- وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال- فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى». اهـ (١/ ١٦٢).

(٢) جزء من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، رواه الترمذي رقم (٣٤٩٧) وحسنه، وابن السني رقم (٤٤٠)، والحاكم (١/ ٥٢٨)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) جزء من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنه رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٦٤)، والحاكم (١/ ٥٢٤ ، ٥٢٥)، وصححه، ووافقه الذهبي، ورواه أيضًا النسائي (٣/ ٥٥) في السهو.

ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله ربَّ العالمين، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شِماله ما تنفق يمينُه»[١].

وفي حديث الثلاثة الذين أطبقت عليهم صخرة وهم في الغار، فلم يجدوا بُدًّا من التوسل إلى الله بصالح أعمالهم، وفيه: أن الثالث استشفع بأنه: «كانت له ابنة عم يهواها، فما زال يراودها عن نفسها، حتى ألمَّ بها قحط، فراودها، فخضعت له، فلما تمكن منها، قالت له: اتق الله، ولا تفضَّ الخاتَم إلا بحقه، فإذا هو يرتعد من خشية الله، وينصرف عنها، ويترك لها الذهب الذي أعطاها ابتغاء وجه الله، فأزال الله الصخرة عن فم الغار بفضل أعمالهم الصالحة[٢].

ويُروى عن عبد الله بن عمر- رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان فيمن كان قبلكم رجل اسمه الكِفْل، وكان لا ينزع عن شيء»، وفي رواية: «كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله، فأتى امرأة علم بها حاجة، فأعطاها عطاءً كثيرًا» - وفي رواية: ستين دينارًا- فلما أرادها على نفسها ارتعدت، وبكت، فقال: ما يُبكيكِ؟ قالت: لأن هذا عمل ما عملته قط، وما حملني عليه إلا الحاجة، فقال: تفعلين أنتِ هذا من مخافة الله؟ فأنا أحرى، اذهبي فلكِ ما أعطيتُك، ووالله لا أعصيه أبدًا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: إن الله تعالى قد غفر للكفل، فعجب الناس من ذلك، حتى أوحى الله تعالى إلى نبي زمانهم بشأنه»[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣/ ٢٩٣- فتح)، ومسلم رقم (١٠٣١)، والترمذي رقم (٢٣٩٢)، والنسائي (٨/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) انظر نص الحديث في «البخاري» (٤/ ٦٥٧-٦٥٨)، ومسلم رقم (٢٧٤٣)، وأبي داود رقم (٣٣٨٧).

(٣) رواه بنحوه الترمذي رقم (٢٤٩٦) (٤/ ٦٥٧-٦٥٨)، وقال: «حديث حسن»، =

وعن سعيد بن جبير قال: كان عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إذا أمسى أخذ دِرَّته، ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئًا ينكره أنكره، فبينما هو ذات ليلة يَعُسُّ إذ مَرَّ بامرأة على سطح، وهي تقول:

تطاول هذا الليل وَاخْضَلَّ[1] جانبه وأرَّقني أن لا خليل ألاعبُهْ
فوالله لولا الله لا ربَّ غيره لَحُرِّك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يصونني وَأُكرِمُ بعلي أن تُنال مراكبه

ثم تنفست الصعداء، وقالت: «لهان على عمر بن الخطاب ما لقيتُ الليلة»، فضرب باب الدار، فقالت: من هذا الذي يأتي إلى امرأة مُغِيبة[2] هذه الساعة؟ فقال: افتحي، فأبت، فلما أكثر عليها، قالت: أما والله لو بلغ أميرَ المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها قال: افتحي فأنا أمير المؤمنين، قالت: كذبت ما أنت بأمير المؤمنين، فرفع بها صوته، وجهر لها، فعرفت أنه هو، ففتحت له، فقال: هيه كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت، فقال: أين زوجك؟ قالت: في بعث كذا وكذا، فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سرِّح فلان بن فلان، فلما قدم عليه قال: اذهب إلى أهلك، ثم دخل على حفصة ابنته، فقال: أي بنية كم تصبر المرأة عن زوجها؟ فقالت: شهرًا واثنين وثلاثة، وفي الرابع ينفد الصبر، فجعل ذلك أجلاً للبعث[3].

= وابن حبان رقم (٢٤٥٣- موارد)، وهو عند الحاكم (٤/ ٢٥٤- ٢٥٥)، وصححه، ووافقه الذهبي، وضعفه الألباني في «الضعيفة» رقم (٤٠٨٣).

(١) اخْضَلَّ: أظلم، وأقبل طيبُ بَرْدِه.

(٢) مُغِيبة : غاب عنها زوجها.

(٣) أخرجه عبد الرزاق، والبيهقي، وابن سعد في «الطبقات».

وعن الشعبي قال: مَرَّ عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- في بعض طرق المدينة، فسمع امرأة تقول:

دعتني النفس بعد خروج عمرٍو إلى اللذات فاطَّلَعَ التِّلاعا[١]
فقلت لها عَجِلْتِ فلن تُطاعي ولو طالت إقامته رِباعا[٢]
أحاذِرُ إن أطعْتُكِ سَبَّ نفسي ومَخْزاةً تُجَلِّلني قِناعا

فقال عمر -وَأُتي بالمرأة-: أي شيء منعك؟ قالت: «الحياء، وإكرام عِرضي»، فقال -رضي الله عنه-: «إن الحياء ليدل على هَنَاتٍ ذاتِ ألوان، من استحيا استخفى، ومن استخفى اتقى، ومن اتقى وُقي»، وكتب إلى صاحب زوجها، فأقفله إليها.

وراود رجل امرأة، فقالت: ألا تستحيي؟ فقال: لا يرانا إلا الكواكب، فقالت: «وأين أنت من مُكَوكِبِها؟».

وقال عباس الدُّوري: كان بعض أصحابنا يقول: كان سفيان الثوري كثيرًا ما يتمثَّل بهذين البيتين:

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها من الحرام ويبقى الوِزْرُ والعارُ
تبقى عواقب سوء في مَغَبَّتِها لا خير في لذة مِن بعدها النارُ[٣]

وكان أبو عبد الله الأنطاكي يقول: «أفضل الأعمال: ترك المعاصي الباطنة»، فقيل له: ولم ذلك؟ قال: «لأن الباطنة إذا تُركت كان صاحبها للمعاصي الظاهرة أَتْرَكَ».

---

(١) التِّلاع جمع تَلْعَة، وهي ما ارتفع من الأرض.

(٢) رِباع: جمع ربيع، وانظر: «القاموس المحيط» ص(٩٢٨)- طبعة مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ .

(٣) «روضة المحبين» ص (٣٣٠).

وكان أحد الزهاد يقول: «يا ويحي عاملت الناس بالأمانة، وعاملت ربي بالخيانة، فليتني عكست»، ثم يبكي.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾: «هو الرجل يخلو بمعصية الله، فيذكر مقام الله فَيَدَعَها فَرَقًا من الله».

فمن ثَمَّ قال الإمام أحمد -رحمه الله-: «الفتوة: ترك ما تهوى لما تخشى».

وقال بشر بن الحارث: « لا تجد حلاوة العبادة حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد».

وعن زيد بن أسلم قال: «خَلَّتان فمن أخبرك أن الكرامة إلا فيهما فكَذِّبْه: إكرامك نفسك بطاعة الله، وإكرامك نفسك عن معاصي الله»[١].

وعن مالك بن دينار قال: «إن الأبرار تغلي قلوبهم بأعمال البر، وإن الفجار تغلي قلوبهم بأعمال الفجور، والله يرى همومكم، فانظروا في همومكم»[٢].

وقال ابن الجوزي: «والرجل- والله- من إذا خلا بما يحب من المحرم، وقدر عليه، وتقلقل عطشًا إليه، نظر إلى نظر الحق إليه، فاستحيى من إجالة همه فيما يكرهه، فذهب العطش».

وعن شقيق بن سلمة أنه تلا هذه الآية: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾، قال: «لقد عَلِمَتْ أن التَّقيَّ ذو نُهْيَة».

---

(١) «شعب الإيمان» (٥/ ٤٥٠).

(٢) «نفسه» (٥/ ٤٦٠).

وقال محمد بن الفضل: «ما خطوت أربعين سنة خطوة لغير الله -عز وجل- وأربعين سنة ما نظرت في شيء أستحسنه حياءً من الله - عز وجل».

وقال أبو مسلم الخولاني: «من نعمة الله عَلَيَّ أنني منذ ثلاثين سنة ما فعلت شيئًا يُستحيى منه إلا قربي من أهلي».

وعن محمد بن سيرين أنه -رحمه الله- قال: «ما غشيت امرأة قط لا في يقظة ولا في نوم غير أم عبد الله، وإني لأرى المرأة في المنام، فأعلم أنها لا تحل لي، فأصرف بصري».

قال بعضهم: «ليت عقلي في اليقظة كعقل ابن سيرين في المنام !».

يقظاته ومنامه شَرْعٌ[(١)] كل بِكُلٍّ فهو مُشْتَبِهُ
إن هَمَّ في حُلْمٍ بفاحشةٍ زجرته عِفَّتُهُ فينتبِهُ

آخر:

فسِرِّي كإعلاني وتلك خليقتي وظلمةُ ليلي مِثْلُ ضوءِ نهاري[(٢)]

وقال مسلم بن الوليد يمدح من يكون في خلوته كمشهده مع الناس:

يتجنب الهفواتِ في خلواته عَفُّ السريرة غَيْبُه كالمشهدِ



(١) شَرْعٌ: سواء.
(٢) «أدب الدنيا والدين» ص (٢٥).

فصـل

خلوة الذين لا يستحيون من الله سبحانه وتعالى

أما الذين لا يستحيون من الله تعالى في خلواتهم؛ فإنه يبدو لهم -إذا وافَوْا يوم القيامة- مِن الله ما لم يكونوا يحتسبون:

عن أبي عامرٍ الألهاني -رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**لَأَعلمن أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تِهامةَ[١] بيضًا، فيجعلها الله هباءً منثورًا**»، قال ثوبان: يا رسول الله صفهم لنا، جَلِّهم لنا، ألَّا نكون منهم ونحن لا نعلم، قال: «**أما إنهم إخوانكم، ومن جِلدتِكم[٢]، ويأخذون من الليل كما تأخذون[٣]، ولكنهم أقوام إذا خَلَوْا بمحارم الله انتهكوها**»[٤].

وصَحَّ عنه ﷺ أنه قال يوم النحر: «.. **ألا وإني فَرَطُكم[٥] على الحوض أنظركم، وإني مكاثرٌ بكم الأمم، فلا تُسَوِّدوا وجهي**»[٦]، الحديث[٧].

---

(١) تهامة: اسم لكل ما نزل من نجد في بلاد الحجار، ومكة من تهامة، سميت تهامة من التَّهَم، وهو شدة الحر، وركود الريح.

(٢) أي من جنسكم.

(٣) أي لهم نصيب من التهجد وقيام الليل.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه المنذري في «الترغيب» (٣/ ١٧٨)، والبوصيري في «الزوائد» (٣/ ٣٠٦)، وهو في «السلسلة الصحيحة» رقم (٥٠٥).

(٥) فَرَطُكم على الحوض: مُتَقَدِّمُكم إليه.

(٦) فلا تسودوا وجهي: بأن تكثروا المعاصي فلا تصلحوا لأن يُفْتَخَر بمثلكم.

(٧) رواه الإمام أحمد (٣٨/ ٤٨٢) ط. الرسالة، وابن ماجه (٣٠٥٧) من حديث =

وقال ميمون بن مِهران: «علانية بغير سريرة مثل كنيف[١] مزخرف من خارجه، ومن داخله النتن والخبث».

ودَعِ الذين إذا أتوك تنسكوا وإذا خَلَوْا فهم ذئاب خفاف

قال محمد بن إسحاق: نزل السري بن دينار في درب بمصر، وكانت فيه امرأة جميلة فتنت الناس بجمالها، فعلمت به المرأة، فقالت: «لأفتننه»، فلما دخلت من باب الدار تكشَّفَت، وأظهرت نفسها، فقال: «ما لك؟»، فقالت: «هل لك في فراش وَطِيءٍ، وعيش رَخِيٍّ؟»، فأقبل عليها وهو يقول:

وكم ذي معاصٍ نال منهن لذةً ومات فَخَلَّاها وذاق الدواهيا
تَصَرَّمُ لذاتُ المعاصي وتنقضي وتبقى تِباعاتُ[٢] المعاصي كما هيا
فيا سوأتا واللهُ راءٍ وسامعٌ لعبدٍ بعين الله يغشى المعاصيا[٣]

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «يا صاحب الذنب لا تأمنن من سوء عاقبته، ولَمَا يتبع الذنب أعظم من الذنب إذا عملته: قلة حيائك مِمَّن على اليمين وعلى الشمال- وأنت على الذنب- أعظم من الذنب الذي عملته، وضَحِكُكَ- وأنت لا تدري ما الله صانعٌ بك- أعظم من الذنب، وفرحك بالذنب- إذا ظفرت به- أعظم من الذنب، وحزنك على الذنب -إذا فاتك- أعظم من الذنب إذا ظفرت به، وخوفك من الريح إذا

= ابن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني.

(١) الكنيف هنا: المرحاض.

(٢) تِباعة الأمر: عاقبته، وما يترتب عليه من أثر.

(٣) «روضة المحبين» ص (٣٣٩).

حَرَّكت سِتر بابك- وأنت على الذنب، ولا يضطرب فؤادك من نظر الله إليك- أعظم من الذنب إذا عملته»[١].

وقال ابن السماك: «لقد أمهلكم حتى كأنه أهملكم، أما تستحيون من الله من طول ما لا تستحيون؟!».

وقال ابن رجب -رحمه الله تعالى-: «خاتمة السوء تكون بسبب دسيسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس».

وقال بعضهم:

«ذنوب الخلوات تؤدي إلى الانتكاسات، وطاعة الخلوات طريق للثبات حتى الممات».

أستغفر الله مما يعلمُ الله ... إن الشقِيَّ لَمَنْ لا يرحمُ اللهُ
ما أحلمَ اللهَ عمن لا يراقِبُهُ ... كلٌّ مسيءٌ ولكن يَحْلُمُ الله
فاستغفرِ الله مِمَّا كان مِن زَلَلٍ ... طوبى لمن كَفَّ عمَّا يكرهُ اللهُ
طوبى لمن حَسُنَتْ سَريرتُه ... طوبى لمن ينتهي عما نهى اللهُ



(١) «حلية الأولياء» (١/ ٣٢٤).

فصـل

المحسنون.. وعمل السر

إن المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه -عز وجل-؛ لم يكتفوا بتخلية خلواتهم عن المعاصي والمخالفات، بل زينوها بالطاعات والقربات، وعمروها بألوان العبادات، امتثالاً لأمر رسول الله ﷺ القائل: «**من استطاع منكم أن يكون له خَبْءٌ من عمل صالح فليفعل**»[(١)].

وبيَّن ﷺ فضيلة عمل السر، ومحبة الله -عز وجل- لأهله، وذلك فيما رواه أبو ذر -رضي الله عنه- أنه ﷺ قال: «**ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يَشْنَؤُهم الله: الرجل يلقى العدوَّ في فئة فينصُبُ لهم نحره حتى يُقتلَ أو يُفَتحَ لأصحابه، والقومُ يسافرون فيطولُ سُراهم حتى يُحِبُّوا أن يَمَسُّوا الأرضَ فينزلون؛ فيتنحى أحدهم فيصلي حتى يوقظهم لرحيلهم، والرجل يكون له الجارُ يؤذيه جاره فيصبر على أذاهُ حتى يفرِّقَ بينهما موتٌ أو ظَعَنٌ، والذين يشنؤهم الله: التاجرُ الحلَّاف، والفقير المختال؛ والبخيلُ المنان**»[(٢)].

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال رسول الله ﷺ: «**عجب ربنا**

---

(١) رواه من حديث الزبير الضياء كما في «الجامع الصغير»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥/ ٢٤٠).

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/ ١٥٣)، والترمذي رقم (٢٥٦٨)، وقال: «هذا حديث صحيح»، وبنحوه الحاكم (١/ ٤١٦)، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، ووافقه الذهبي.

من رَجُلين: رجل ثار عن وِطائه ولِحافه من بين حَيِّه وأهْلِه إلى صلاته رغبة فيما عندي، وشَفَقًا مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله، فانهزم مع أصحابه، فعلم ما عليه في الانهزام، وما له في الرجوع، فرجع حتى أُهْرِيقَ دَمُه، فيقول الله لملائكته: « انظروا إلى عبدي رجع رغبة فيما عندي، وَشَفقًا مما عندي حتى أُهْريقَ دَمُه»(١).

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال ﷺ: «**حُرِّم على عينين أن تمسَّهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس الإسلام وأهلَه من أهل الكفر**»(٢).

وكان الزبير بن العوام -رضي الله عنه- يقول: «اجعلوا لكم خبيئة من العمل الصالح، كما أن لكم خبيئة من العمل السيئ».

وقال معاوية بن قرة: «من يدلني على رجل يبكي بالليل، ويبتسم في النهار؟» يعني أن ذلك قليل.

وعن الحسن عن سمرة بن جندب قال: «من سَرَّه أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده، ومن سَرَّه أن يعلم مكان الشيطان منه فلينظره عند عمل السِر».

وقال الإمام الشافعي -رحمه الله تعالى-: «من أحب أن يفتح الله قلبه أو ينوره فعليه بترك الكلام فيما لا يعنيه، واجتناب المعاصي، ويكون له خبيئة فيما بينه وبين الله -تعالى- من عمل».

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٤١٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٤/ ٩٣٠)، وصححه ابن حبان(٦٤٣)، وحسنه الهيثمي في «المجمع» (٢/ ٢٥٥)، وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على«المسند» (٦/ ٣٩٤٩).

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٨٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣/ ٨٩).

وقال سفيان بن عيينة: قال أبو حازم: «اكتم حسناتِك أشد مما تكتم سيئاتِك».

وقال سفيان الثوري: «بلغني أن العبد يعمل العمل سرًّا فلا يزال به الشيطان حتى يغلبه، فيكتب في العلانية، ثم لا يزال الشيطان به حتى يُحِبَّ أن يُحْمَدَ عليه فيُنسخ من العلانية، فيثبت في الرياء».

وقال أيوب السَّخْتِياني: «واللهِ ما صدق عبد إلا سَرَّه ألّا يُشْعَرَ بمكانه».

وقال أيضًا: «لأن يَستر الرجلُ الزهدَ خير له من أن يُظهره».

وقال بشر بن الحارث: « لا أعلم رجلًا أحبَّ أن يُعرف إلا ذهب دينُه وافتُضِحَ» وقال: «لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس».

وقال الحارث المحاسبي -رحمه الله-: «الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله».

ولقد حفلت سير السلف الصالح ومن سلك سبيلهم بنماذج رائعة من الاجتهاد في عمل السر، **فهاك بعضَها**:

قال أبو حمزة الثمالي: «كان علي بن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل، فيتصدق به، ويقول: «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب -عز وجل-».

وعن شيبة بن نعامة قال: «كان علي بن الحسين يُبَخَّل، فلما مات وجدوه يقوِّت مائة أهل بيت بالمدينة».

قال جرير: «إنه حين مات وجدوا بظهره آثارًا مما كان يحمل بالليل الجُرُبَ[(١)] إلى المساكين».

وعن محمد بن إسحاق: «كان ناس من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين؛ فقدوا ما كانوا يُؤتون به في الليل»[(٢)].

وقال سفيان الثوري تلميذ منصور: «لو رأيت منصورًا يصلي لقلتَ: يموت الساعة»، وقال زائدة بن قدامة تلميذه: «صام منصور أربعين سنة، وقام ليلها، وكان يبكي الليل كله، فإذا أصبح كحَّل عينيه، وبرَّق شفتيه، ودهن رأسه، فتقول له أمُّه: «أقتلتَ قتيلاً؟» أي لكثرة ما ترى من بكائه ووجله وعبادته لله -تعالى- فيقول: «أنا أعلمُ بما صَنَعَتْ نفسي».

«وكان ابن سيرين يضحك بالنهار، فإذا جَنَّ الليل فكأنه قتل أهل القرية».

وكان أبو وائل إذا صلى في بيته ينشِج نشيجًا، ولو جُعلت له الدنيا على أن يفعله، وأحدٌ يراه ما فعله»[(٣)].

وكان أيوب السختياني يقوم الليل كله، فيخفى ذلك، فإذا كان عند الصبح رفع صوته، كأنه قام تلك الساعة.

وقال حماد بن زيد: «كان أيوب ربما حَدَّث بالحديث فيرق، فيلتفت فيتمخط، ويقول: ما أشد الزكام!» يُظْهِر أنه مزكوم لإخفاء البكاء، رجاء

---

(١) الجُرُب: جمع جِراب، وهو وِعاء يُحفظ فيه الزادُ ونحوه.

(٢) انظر : «حلية الأولياء» (١/ ١٣٥- ١٣٦).

(٣) «الزهد» للإمام أحمد (٣٥٨).

أن يكون ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

فإذا فشل أحدهم باصطناع المرض لإخفاء الدموع فإنه يقوم خشية أن يُكشف أمره، قال الحسن البصري: «إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته، فيردها، فإذا خشي أن تسبقه قام»(١).

وعنه أيضًا أنه قال: «إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْرُ وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سر فيكون علانية أبدًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم -عز وجل-، ذلك أن الله -تعالى عز وجل- يقول: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ وذلك أن الله تعالى ذكر عبدًا صالحًا، ورضي قوله فقال: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾.

وعن محمد بن زياد قال: رأيت أبا أمامة أتى على رجل في المسجد، وهو ساجد يبكي في سجوده، ويدعو ربه، فقال أبو أمامة: «أنت أنت! لو كان هذا في بيتك؟».

وقال محمد بن واسع: «إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة، وامرأته معه لا تعلم به»(٢).

وقال رحمه الله: «لقد أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة، قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به

(١) نفس المرجع ص (٢٦٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/٣٤٧).

امرأته، ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف، فتسيل دموعه على خده، ولا يشعر به الذي إلى جنبه»[(١)].

وعن ابن أبي عدي قال: صام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله، وكان خرازًا يحمل معه غداءه من عندهم، فيتصدق، به في الطريق، ويرجع عشيًا فيفطر معهم».

وعن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك، فكثيرًا ما كان يخطر ببالي، فأقول في نفسي: «بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟ إن كان يصلي إنا لنصلي، وإن كان يصوم إنا لنصوم، وإن كان يغزو فإنا لنغزو، وإن كان يحج، إنا لنحج»، قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج، وخرج يستصبح[(٢)]، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج، فنظرت إلى وجه ابن المبارك ولحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: «بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، ولعله حين فقد السراج فصار إلى ظلمة ذكر القيامة»[(٣)].

وقال قطن بن سعيد: «ما أفطر ابن المبارك قط، ولا رئي صائمًا قط»[(٤)]، ولما قدم من البصرة إلى بغداد سأل عن محمد بن واسع، فلم يعرفه أحد، فقال: «إنه من فضله لم يُعرف»، وازداد فيه محبة وتعظيمًا، لإسراره بالعبادة، وبعده عن الشهرة»[(٥)].

---

(١) «نفس المرجع» (٢/ ٣٤٧).

(٢) يستصبح: يوقد المصباح.

(٣) «صفة الصفوة» (٤/ ١٢١).

(٤) «حلية الأولياء» (٨/ ١٦٧).

(٥) «تنبيه المغترين» ص(١٢).

وأخبر محمد بن أعين -وكان صاحب ابن المبارك في الأسفار، وكان كريمًا عليه- قال: كان ذات ليلة ونحن في غزاة الروم، ذهب ليضع رأسه ليريني أنه ينام، فقعدت أنا ورمحي في يدي قبضت عليه، ووضعت رأسي على الرمح كأني أنام كذلك، فظن أني قد نمت، فقام فأخذ في صلاته، فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر وأنا أرمقه، فلما طلع الفجر جاء فأيقظني، وظن أني نائم، وقال: «يا محمد!» فقلت: «إني لم أنم»، فلما سمعها مني؛ ما رأيته بعد ذلك يكلمني، ولا ينبسط إليَّ في شيء من غزاته كلها، كأنه لم يعجبه ذلك مني، لما فطنت له من العمل، فلم أزل أعرفها فيه حتى مات، ولم أر رجلاً قط أَسَرَّ بالخير منه(١).

وَحَدَّثَ عبدة المروزي قال: كنا في سرية مع عبد الله ابن المبارك في بلاد الروم، فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان؛ خرج رجل من العدو، فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله الرومي، ثم آخر فقتله، فتأخر عنه المسلمون، فصال وجال بين الصفين، ودعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فطارده ساعة، ثم طعنه فقتله، فازدحم إليه الناس، فكنت فيمن ازدحم إليه، فإذا هو يلثِّم وجهه بكمه حتى لا يعرفه الناس، فأخذت بطرف كمه فمددتُه، وأزحته عن وجهه، فإذا هو عبد الله بن المبارك، فقال: «وأنت يا أبا عمرو ممن يُشنع علينا!»(٢) أي: تنشر خبرنا؟

وقال محمد بن عيسى: كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طَرَسُوس، وكان ينزل الرَّقَّة في خان، فكان شاب يختلف إليه، ويقوم بحوائجه، ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله الرقة مرة فلم يره، فخرج

---

(١) «تقدمة الجرح والتعديل» ص(٢٢٦).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٦٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٩٤).

في النفير مستعجلاً، فلما رجع سأل عن الشاب، فقالوا: « إنه محبوس على عشرة آلاف درهم»، فاستدل على الغريم، ووزن له عشرة آلاف، وحلَّفه أن لا يخبر أحدًا ما دام عبدالله حيًّا، فأُخرج الرجل، وسرى ابن المبارك، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرقة، فقال له: «يا فتى، أين كنت؟ لم أرك» قال: «يا أبا عبد الرحمن! كنت محبوسًا بدين»، قال: «وكيف خلصتَ؟» قال: «جاء رجل، فقضى دَيني، ولم أدر»، قال: «فاحمد الله»، ولم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد الله[١].

ثواب المحسنين:

هذا هو الإحسان، وهؤلاء هم المحسنون الذين يود المجرم أن يعود إلى الدنيا لينضم إلى حزبهم، قال تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لأنهم صفوة الله من خلقه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

هؤلاء هم المحسنون الذين يفوزون بمعية الله الخاصة قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقال جل وعز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، هم الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، وقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، وهم الذين أمر تعالى نبيه ﷺ أن يبشرهم فقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.



(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٨٦)، وانظر: «تاريخ بغداد» (١٠/ ١٥٩).

هَلْ جَزَاء الإحسانِ إلَّا الإِحسانُ؟

فهؤلاء المحسنون أخلصوا العمل لله، وراقبوه مراقبة من ينظر إلى ربه، لكمال علمهم بأن الله ينظر إليهم، ويرى حالهم، ويسمع مقالهم، فطرحوا النفوس بين يديه، وأقبلوا بكليتهم عليه، والتجأوا منه إليه، وعاذُوا به منه، وأحبُّوه من كُلِّ قلوبهم، فامتلأت بنور معرفته فلم تتسع لغيره، فبه يبصرون، وبه يسمعون، وبه يبطشون، وبه يمشون، وبرؤيتهم يُذكَر الله -تعالى-، وبذكره يُذكَرون.

ذكروا الله -تعالى- فذكرهم، وشكروه فشكرهم، وتولَّوه ووالوا فيه فتولَّاهم، وعادوا أعداءه لأجله، فآذن بالحرب مَن عاداهم، وأحسنوا عبادة ربهم فأحسن جزاءهم وأجزله، عبدوه على قدر معرفتهم به فجازاهم بفضله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وزادهم ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ والحسنى التي وعد الله تعالى المحسنين هي الجنة، وأما الزيادة فهي النظر إلى وجه الله -عز وجل- كما رواه مسلم عن صهيب عن النبي ﷺ.

فلما كانوا يعبدون الله -عز وجل- في الدنيا على وجه الحضور والمراقبة كأنهم يرونه بقلوبهم، وينظرون إليه في حال عبادتهم إياه كان جزاءهم على ذلك النظرُ إلى وجه الله -عز وجل- في الآخرة عِيانًا بأبصارهم.

وعكس هذا ما أخبر به عن المكذبين الذين ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون، فقال تعالى فيهم: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ لما كان حالُهم في الدنيا التكذيب، وأعقبهم ذلك التكذيب تراكم الرَّان على قلوبهم حتى حُجبت عن معرفته ومراقبته في الدنيا، فكان جزاءَهم على ذلك أن حُجبوا عن رؤيته في الآخرة، وذلك قول الله عز وجل: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾.

كيف يُكْتَسَبُ الحياء؟

لو كانت الأخلاق صفاتٍ لازمةً تُخلق في الإنسان ويُطبع عليها؛ فلا يمكنه تغييرها ولا تبديلها ولا تعديلها كسائر صفاته الجسدية من طول وقصر ولون، لَمَا أمر الشرع بالتخلق بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن القبيحة، فلو لم يكن ذلك ممكنًا مقدورًا للإنسان لما ورد به الشرع، لأنه« لا تكليف إلا بَمقدور» و«لا تكليف بمستحيل»، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1] ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، وقال ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم، والحِلْم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يُعْطَه، ومن يتوق الشر يُوَقَّه**»[2]، لكن الناس يتفاوتون في مقدار أهليتهم وقدرتهم واستعدادهم لاكتساب الأخلاق أو تعديلها، فمن جُبِلَ على خُلُقٍ معينٍ يسهل عليه ترسيخ هذا الخلق في نفسه، لأن فطرته تعينه عليه.

وفيما يتعلق بخلق الحياء فقد قدمنا أن منه جبليًا ومنه كسبيًا، وهاك بعضَ الوسائل التي تعين على اكتساب الحياء، وترسيخه:

أولاً: الإمساك عما تقتضيه قلة الحياء من أفعال وأقوال، كالكلام الفاحش والبذيء، مراغمةً وإغاظةً للشيطان الذي يزين هذه الأفعال، ويغرِي بها، فإن هذا يؤيسه من التحريض عليها، فيخنس ويخزي.

---

(١) ولم يقل عز وجل: «قد أفلح من تعلم كيفية تزكيتها»، إشارة إلى أن المقصود بالعلم هو تزكية الأفعال بمباشرة الأعمال المحققة لزكاة النفس وتطهيرها، وليس مجرد العلم النظري.

(٢) أخرجه الخطيب في «تاريخه» (٩/ ١٢٧)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» رقم (٣٤٢).

ومن الأدب القرآني في هذا التكنية وعدم التصريح بالألفاظ التي تخدش الحياء إلا فيما لابد منه لمصلحة شرعية.

ثانيًا: إدمان مطالعة فضائل الحياء، وترديدها على القلب، وجمع الهمة على تحصيل أعلى درجات الحياء، والسعي الحثيث في التحلي به.

ثالثًا: تقوية الإيمان والعقيدة في القلب، لأن الحياء ثمرة الإيمان، ومعرفة الله -عز وجل-.

رابعًا: التعبد بالتفكر في أسماء الله الحسنى التي تستوجب المراقبة والإحسان كأسمائه: الشهيد، والرقيب، والعليم، والسميع، والبصير، والمحيط، والحفيظ، قال حاتم الأصم: «تعاهد نفسك في ثلاث: إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله منك، وإذا سكت فاذكر علم الله فيك».

خامسًا: المواظبة على العبادات المفروضة والمندوبة كالصلاة التي قال تعالى في شأنها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾، وقد قيل لرسول الله ﷺ: «إن فلانًا يصلي الليل كله، فإذا أصبح سرق!» فقال ﷺ: «**سينهاه ما تقول**» أو قال: «**ستمنعه صلاته**»(١).

وكالزكاة التي قال سبحانه فيها: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾.

سادسًا: لزوم الصدق وتحريه، وتجنب الكذب، لأن الصدق يهدي إلى

---

(١) رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الإمام أحمد (٢/ ٤٤٧)، والطحاوي في «المشكل» (٢/ ٤٣٠)، وغيرهم، وصححه ابن حبان (٦٣٩- موارد)، وقال في «المجمع»: (رواه أحمد، والبزار، ورجاله رجال الصحيح). (٢/ ٢٥٨).

البر، قال ﷺ: «**عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البِرّ، وإن البر يهدي إلى الجنة**»(١) الحديث، والحياء من جملة البر.

سابعًا: المواظبة على تكلف الحياء مرة بعد مرة حتى تألفه النفس، وتعتاده، ويصير لها طبعًا وسجية، وهذا يستلزم التجمل بالصبر كالمريض الذي يصبر على تعاطي الدواء المر.

ثامنًا: مخالطة الصالحين، ورؤيتهم، والسماع منهم، والاستمداد من حيائهم.

قال بعضهم: «أحي حياءك بمجالسة من يُستحيا منه».

وقال مجاهد: «لو أن المسلم لم يُصِبْ من أخيه إلا أن حياءه منه يمنعه من المعاصي؛ لكفاه»(٢).

تاسعًا: استحضار حياء المثل الأعلى للبشرية رسولِ الله ﷺ، ومطالعة سيرته العطرة، وشمائله الكريمة، ثم استحضار حياء صحابته -رضي الله عنهم- وسيرتهم سيما الخلفاء الراشدين، والعشرة المبشرين بالجنة، وأصحاب بدر، وأصحاب بيعة الرضوان، وسائر المهاجرين والأنصار، ثم من تبعهم من أهل العلم والإيمان.

عاشرًا: اعتزال البيئة الفاسدة والموبوءة التي تصد عن الخلق الحسن(٣)، والتنزه عن معاشرة قليلي الحياء، والتحول إلى الصحبة

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» رقم (٣٨٦)، ومسلم رقم (٢٦٠٦) وغيرهما.

(٢) «مكارم الأخلاق» ص (٨٤).

(٣) وبخاصة أجهزة الفساد السمعية منها والبصرية التي تنسف الحياء نسفًا، وتدمره تدميرًا، وقد كتب بعضهم شعرًا على لسان «البث المباشر» فقال: =

الصالحة، وفي حديث قاتل المائة أن العالم قال له: «.. **ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها ناسًا يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء..**»[١] الحديث.

وهذا آخر ما تيسر جمعه في هذا الباب، تبصرة وذكرى لأولى الألباب، ونستغفر الله -عز وجل- من كل ما زلَّ به القدم، أو طغا به القلم، ونستغفره من أقاويلنا التي لا توافق أعمالنا، ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم بباب الحياء مع التقصير فيه، ونسأله أن يجعلنا بما علمناه عاملين، ولوجهه به مريدين، وألا يجعله وبالاً علينا، وأن يضعه في ميزان الصالحات إذا رُدَّتْ أعمالنا إلينا، إنه جواد كريم.

اللَّهم إنا نحب طاعتك؛ وإن قصَّرنا فيها، ونكره معصيتك؛ وإن ركبناها، فتفضل علينا بالجنة؛ وإن لم نستحقها، وخَلِّصْنا من النار؛ وإن استوجبناها، فيا من لا تضره الذنوب، ولا تنقصه المغفرة، هب لي ما لا

=

هل تعلمون من أنا ... أنا مصدِّرُ الخنا
أنا الذي يصور الـ ... خبث بصورة السَّنا
أنا الذي بداركم ... يشرح أسرار الزنا
أنا عدوٌ للبقاء ... أنا صديق للفَنا
أنا عدو داركم ... أنا مقوِّض البِنا
أمنيتي سامية ... تفوق في الدنيا المنى
أمنيتي تحطيم كل ... خيرِ يملأ الدُنا

وانظر كتاب «الإجهاز على التلفاز» للمؤلف.

يضرك، وأعطني ما لا ينقصك.

يا ربِّ إن عَظُمَتْ ذنوبي كثرةً فلقد علمتُ بأن عفوك أعظمُ
إن كان لا يرجوك إلا محسنٌ فمن الذي يدعو ويرجو المجرِمُ
أدعوك يا رب كما أمرتَ تضرعًا فـإذا رُدِدْتُ فـمـن ذا يـرحـم
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرجا وجميـلُ عفـوِكَ ثـم إني مُسْلِمُ

اللهم صلِّ على محمدٍ عبدِك ورسولِك النبي الأمي، وعلى آل محمدٍ وأزواجه وذريته، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد النبي الأمي، وعلى آل محمد وأزواجه وذريته، كما باركت على إبراهيم، وعلى آل إبراهيم في العالمين، إنك حميد مجيد، والحمد لله رب العالمين.

الإسكندرية في
الأحد ٨ ربيع الأول ١٤١٣هـ
الموافق ٦ سبتمبر ١٩٩٢م
وكان الفراغ من مراجعته وتنقيحه في
الخميس العاشر من المحرم ١٤٢٧ هـ
الموافق ٩ فبرير ٢٠٠٦م

مسرد الموضوعات

الموضوع الصفحة